سحارة الكاشف

تأليف

محمود أبو العزايم

دار الفكر
الخرطوم

دار ومكتبة الهلال
بيروت

طبع على مطابع دار ومكتبة الهلال ـ بيروت
ص ـ ب : ۱٥ /٥٠٠٣

سَحَارَةُ الكَاشِف

تأليف

محمود أبو العزايم

دار الفكر
الخرطوم

دار ومكتبة الهلال
بيروت

طبع على مطابع دار ومكتبة الهلال ـ بيروت
ص ـ ب : ٥٠٠٣/ ١٥

(بسم الله الرحمن الرحيم)

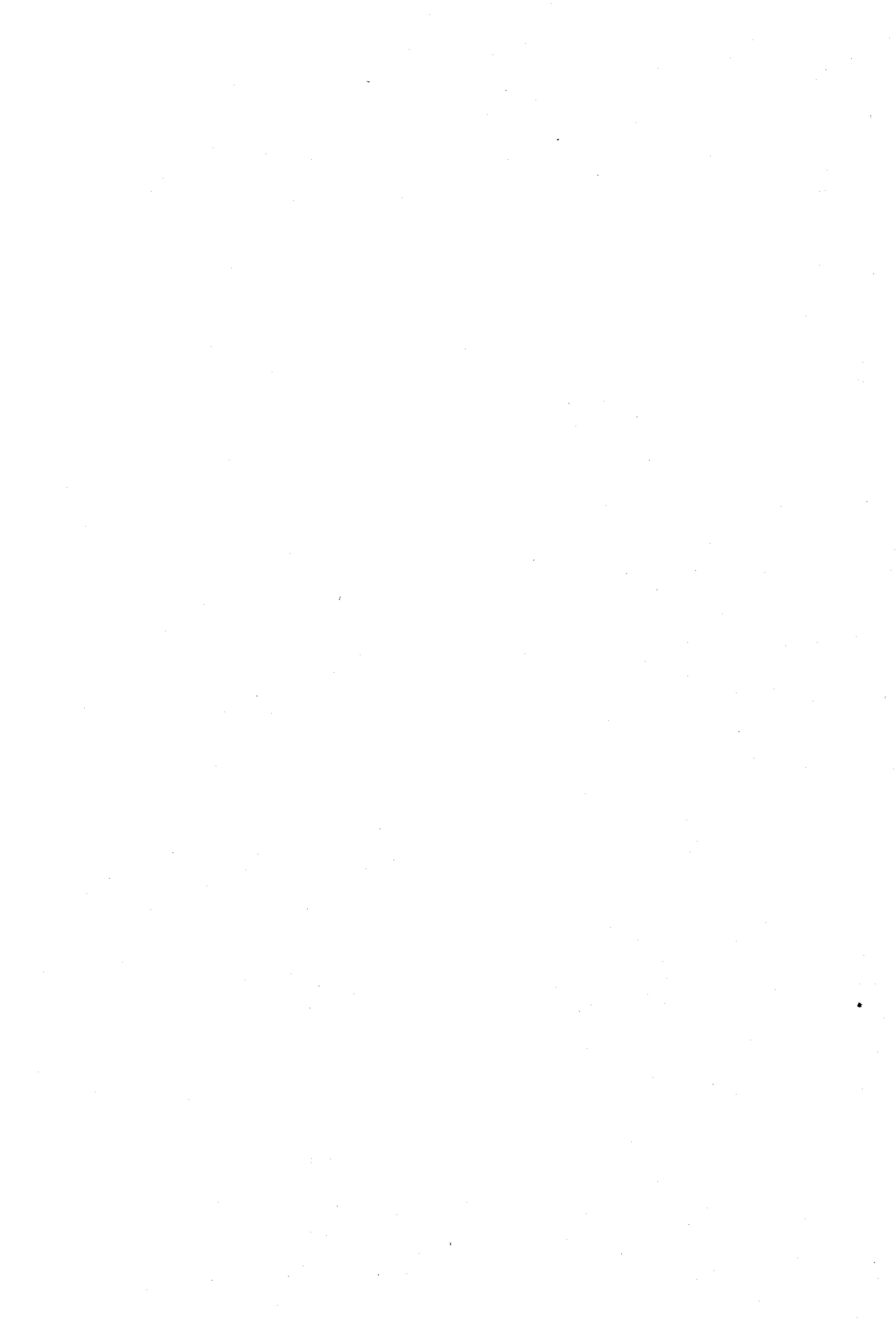
عزيزي القارىء . . . . . .

في واحدة من مراحل التعليم باليابان . . وقبيل الحرب العالمية الثانية . . كان الطلاب تغلق عليهم الابواب مثلما يجري مع المحلفين في بعض النظم القضائية ويطلب من كل منهم ان يتذكر ومنذ ان كان وعيه بالحياة فيسجل ذكرياته تلك على الورق . . وليأخذ من الوقت ما يشاء فامامه عام كامل في ذلك المعتقل لا يخرج منه او يغادره الى حيث يعيش الناس الا بعد الفراغ من مهمته تلك . . وحاولت في مرات عديدة في ذلك الوقت المبكر من الحياة ان افعل ما كان مطلوباً فعله من الطلاب اليابانيين . . ودخلت التجربة مرات . . وبدأت لذيذة ولكن سرعان ما يصيبني الملل فاتركها غير آسف عليها . . وان كانت تلح . . . تعاودني من وقت الى آخر ومازالت كذلك حتى شببت عن الطوق في رأي نفسي واخذت اتلقى من المطبعة العربية عن جيل العمالقة فقرأت ايام طه حسين التي فرضت علي من جديد على رغم ما فيها من روعة ومتعة ان اعود مرة أخرى الى اليابان . . وتمر الايام والاسابيع والشهور والسنين واعيش من خلالها تجاربي الخاصة في الحياة ومعها والذاكرة مازالت تخضع لتأثيرات طلاب اليابان فتصطدم بمن واحد الى عشرة ومن عشرة الى عشرين لمصطفى امين يتبعها بعدئذ صالون العقاد

لانيس منصور ليحركني ذلك كله ان ابدأ ولا يهم من اين هل هي بداية تتصل ببداية الوعي ام تكون من حيث ما فرض نفسه على من وقائع لتجارب بعينها ومع أن طه حسين ومصطفى امين يرويان حال المجتمع من خلالهما في حقبة زمنية عاشاها بالطول والعرض ليس كما يعيشها عامة الناس بل وليس كما يعيشها معظم خاصتهم فإن انيس منصور اعطى صورة مماثلة في صالون العقاد اضاف اليها تاريخ الحياة الفكرية والأدبية والثقافية التي عاشها جيله في ذلك الزمان مع رؤية خاصة للعقاد قدمه من خلالها باعتباره صناعة من خلقه هو وابداعه فإن عقاد الصالون هو اختراع شخصي لانيس منصور فاهتديت بمنارة الصالون وكان العقاد الذي يخصني وارتضيته عن اقتناع مدخلاً لطلاب اليابان الممتحنين ولطه حسين ومصطفى امين وبخاصة انيس منصور هو المطرب (الفنان الخالد ابراهيم الكاشف) وطرحت مانتويت الشروع فيه على مدير تحرير جريدة الصحافة شريف طمبل ورأيت ان اكتب فصولاً قصيرة تنشر يومية وبعثت اليه بالدفعة الاولى وكانت ستة مقالات بالتمام والكمال لافاجأ بها منشورة بعد ثلاثة ايام كاملة في مقال واحد وافاجأ ايضاً بعنوان ثابت لما سوف يتبع من مقالات هو ما يحمل اسم هذا الكتاب (سحارة الكاشف) وناقشت القضية مع شريف طمبل فانتصرت حجته على رؤيتي وكانت من الحجج التي لا ترد . لم يكن ليخطر ببالي وانا احاول رسم تابلوهات بالقلم الذي غمسته في ذاكرتي واحاسيسي ومشاعري ان يكون ذلك آخر الامر هذا الكتاب الذي بين يديك اذ أنه في الواقع ليس كتاباً في التاريخ الهدف منه أن يؤرخ لمدينة ودمدني من خلال رجالها وزحام حياتهم اليومية سياسية كانت او اقتصادية فكرية او ثقافية ولكنه كتاب لابد وان تكون فيه منفعة لمن سوف يضطلعون بهمة الكتابة للتاريخ وذلك أنني وجدت نفسي اتعامل مع الحي الذي

عشت فيه وهو القسم الاول من المدينة يفصل بينه وبين مساكن موظفي الحكومة والحي البريطاني والسوق الكبير فما من تاجر أو صاحب حرفة في أي مكان من المدينة . . موقع سكنه الا وكان طريقه من البيت الى مكان العمل مخترعاً للقسم الاول حيث أقيم فتكون الرؤية ويكون الرصد للناس وللحياة كل الاندية الثقافية والرياضية ومنتديات الجاليات الاجنبية تقع كلها في ذلك الحي بما في ذلك محطة السكك الحديدية وميادين كرة القدم واحتفالات المناسبات واهمها المولد النبوي الشريف اذا ليس غريباً ان تكون رؤيتي من خلال ذلك كله من موقع واحد للرصد والقسم الاول الذي استقطب نشاط كافة اصحاب الطموحات من الناس ولئن اغفلت ذكر بعض الاسماء من الاسماء كالاقرع وشمس الدين الشافعي وود ابو شنب وغيرهم فليس ذلك من قبيل التقليل من شأنهم بقدر ما هو عائد الى ضيق في دائرة صلاتي ومعلوماتي القائمة على المعرفة للاختلاط والمعايشة واما الذين ورد ذكرهم في هذه التابلوهات (يستحقون) ان يذكروا والذين كان الاغفال من نصيبهم لا يستحقون ذلك الاغفال لانهم متساوون مع غيرهم من حيث المكانة بالعطاء ومن حيث السلوك الرفيع بالتعامل مع الناس في ذلك المجتمع وهذا تقصير اعترف به . .

محمود ابو العزائم



كيف كانت بداية الكاشف ؟

عثمان فرفشه فنان الجزيرة القديم الذي اكتسب هذا الاسم فرفشه من اغنية راقصة تبدأ كلماتها بفرفشه .. بحبحه اذ كان يضع العود فوق رأسه ويعزف عليه اثناء الرقص .. وبداية عثمان فرفشه لحسن حظه وسوئه في نفس الوقت . جاءت مع بداية ابراهيم الكاشف .. كان الكاشف نجار سحارات .. والسحارة صندوق خشبي مزدان بالصفيح الملون المنقوش .. كان دولاب العرايس في ذلك الزمان .. وكان عثمان فرفشه محولجياً بالسكة حديد .. الكاشف كان يرتدي العراقي والسروال الطويل .. وينهمك في عمله الذي وجد له ورشة صغيرة في مغلق حاج الطاهر المنشد بودمدني .. وهو مقابل لمحل محمد على احمد . الترزي الافرنجي الذي يجاور مصنع ليموناده الخواجة يني . ويجاور في نفس الوقت محمد علي حسون الساعاتي وصاحب المكتبة وكان يجمع بين الفنيين .. في اقتناء الكتب والمجلات وفن تصليح الساعات .. وكان يتعامل مع الفنيين بالدقة .. والامانة والصدق مع جمهوره .. او زبائنه .. الى جانب كونه اديباً مطلقاً من الطراز الاول والمكتبات في وادمدني كانت محدودة .. اشهرها سودان بوكشوب .. التي كانت تملكها الكنيسة الانجليزية .. لتنقل ملكيتها بعد الاستقلال للسلمابي رحمه الله .. ثم لمالكها الحالي . يوسف عبده تادرس .. وكانت هناك المكتبة الوطنية لصاحبها عيسى عبدالله رحمه الله . فمكتبة سيد مضوي الحاج التي اشتهرت بامهات الكتب العربية . ومكتبة

بشير محمدين . . ثم المكتبة التي يديرها محمد علي حسون بالافتة (الساعاتي) وسيد مضوي الحاج كانت مكتبته تجمع بـين الكتب والبقالة شأنه في ذلك شأن رصيفه محمد علي حسون . فهو أديب مثله ومثقف . قاريء ومطلع من الطراز الاول . تجمع بينهما تجارة الكتب وتفرق بينهما . . الساعاتي والبقالة .

وكان عثمان فرفشه يرتدي الزي الافرنجي الكامل . . حتى غطاء الرأس الشهير بالكاسكيته . . متأثراً في ذلك بملوك الرقص والغنـاء مما يشـاهد في الافـلام الامريكيـة التي توصف بـالافلام الاستعـراضية أمثـال بنج كـروسبي . والفريـد استير . وفـرانـك سيناترا . . والمدهش ان الكاسكيتة التي كان يرتديها لا يعرف انسان من اين يشتريها فرفشه . فالسوق مليىء بالبرانيط . . اما هذا الطراز الغريب من غطاء الرأس المصنوع من القش الابيض المائل للصفار فليس موجوداً الا في السينما . . وعلى رأس فرفشه . .

ولما كان عثمان فرفشه . يرتدي البدلة الكاملة فليس غريباً ان تنشأ صلة الزبون بينه وبين الترزي الافرنجي . . غير ان الترزية الافرنجية كانوا ثلاثة . . محمد على احمد . وامين بركات . ونبيل . والسر في اختيار فرفشه لمحمد على احمد . هو ان الشاعر على المساح كان يقوم بمهمة فتح العراوي . وتركيب الزراير في هذا المحل . . وهو كما اسلفنا القول كان على بعد خطوات من ورشة السحارات التي يملكها الكاشف . والتي كانت ضيقة على مغلق حاج الطاهر المنشد . . واسرة المنشد تتولى شياخة الطريقة الاحمدية السطوحية التي توارثتها . ابا عن جد . . واسم المنشد الجد . . استحقه لجودة انشاده . . كان عثمان فرفشه يكثر الجلوس مع علي المساح . . وكان يستحوز على كثير من شعره . . ويعالجه بطريقته في جد واجتهاد غير انه لم يستطع أن يحقق به شيئاً مما اراد . .

اما ابراهيم الكاشف . . فانه كان شيالاً مع مطرب اسمه مصطفى بايا . . وبايا كان سائق لوري . . وكان احياناً (يشيل) مع مطرب آخر اسمه (الشبلي) كان سائقاً في الري لم يمتد به العمر طويلاً والا لكان له من المكانة ما كان لسرور وكرومة . . والشبلي . ينتمي لاسرة معروفة في وادمدني . اسرة سعدابي . . وكان شقيقاه عثمان التني وعبد الباقي . مطربين . في تلك الايام كان من رأى جدة ابراهيم الكاشف . . أن الغناء رجس من عمل الشيطان . . فكانت تطارد حفيدها طوال كل ليل . . وما كان البحث عنه يعيبها . . حتى تجده . فتنهال عليه ضرباً وأمام المتفرجين . . وكان الكاشف يقابل تلك الشدة بالاصرار على الغناء . . وكانت تقابل اصراره على الغناء باصرارها على الضرب . . الى أن انتصر الفن . . وانهزم الضرب .

الشاعر علي المساح . امي لا يقرأ ولا يكتب . . مظهره العام لا يعكس شيئاً مما بداخله . . تجده جالساً في مدخل دكان محمد على احمد الترزي الافرنجي على جوال مفروش على الأرض . . مركوبه مترب كثير الثقوب قديم . . اعتاد ان يمدد ساقيه حافيتين ويضع ذلك المركوب الرهيب خلفه . جلبابه ليس باحسن حالاً من المركوب . . فصدره عار من أي زراير . . بينما هو مشغول بفتح العراوي وتركيب الزراير للبدل كاملة . . رأسه حاسر على الدوام . . والشخص الذي رأى المساح يرتدي شيئاً جديداً لم يخلق ابداً . . فكأنما كان لا يشتري الا ما هو قديم . . قليل الكلام . . قال الشعر اكثر بكثير جداً مما تحدث بالكلام العادي . . وهو من النوع الذي ينطبق عليه القول . . تحدث قليلاً جداً لكنه قال كل شيء يمكن ان يصدر عن انسان فنان . .

كان عثمان فرفشه يهجم بالفانيلا . . والبوميتش . . والجبردين على الترزي الافرنجي محمد علي احمد . . لاجراء البروفات بعد اخذ المقاسات . . وفي ذات الوقت كان عثمان فرفشه يصطاد عصفورين بحجر واحد . العصفور الاول هو الترزي الافرنجي . . والعصفور الثاني . هو الشاعر علي المساح . كان يهجم عليه يريد الكلمات ليصوغها بالحانه ثم يترنم بها شادياً في المناسبات . . ولم يكن المساح ليضن بشعره حتى لاولئك الذين لا يغنونه . . بل يكفي ان يتغنوا به لانفسهم . . ولهذا قدم معظم شعره للفنان عثمان فرفشه . حتى اصبح اليوم . . ربما المرجع الاول لكل شعر المساح المبعثر .

وكان ابراهيم الكاشف يعد نفسه لرسالته العظيمة . . وكان دائم الصلة بالمساح . والتقى (الاميان) الشاعر والمطرب . . علي المساح وابراهيم الكاشف . . وبحث الثاني في شعر الاول ليختار من بينه (الشاغلين فؤادي) وعض عليها بالنواجذ . . وكانت قبل ذلك اختياراً لفرفشه . لكنها لم تلفت نظر الجمهور المحدود . بيوت اللعبات في ذلك الزمان . . ويصب الكاشف كل قدراته في تلك القصيدة . . فيغنيها فينبه الى مولد فنان جديد معلنا مع رفيقيه اللذين سبقاه حسن عطيه امير العود واحمد المصطفى . . موت الصايع . . ومولد الفنان الذي يحترمه الناس . . وهكذا بدأ الكاشف يشق طريقه في عالمه الفني الجديد بنفس الطريقة التي كان يشق بها خشب صناعة السحارات . . الدقة والاتقان في مجالات التنافس فيها ضرب من المستحيل الا لاصحاب الرسالات من أمثاله الذين يتمتعون بقدرات انسانية لم تتوفر لغيرهم مما ترجمه عطاءا ثرا . مستمراً ومتصلاً . .

اما عثمان فرفشه . فإنه ترك السكة حديد واتجه الى تعلم صناعة العطور . . فاقام معمله الخاص الذي ظل ينتج حتى كتابة

هذه السطور .. مع الاستمرار في فنه الغنائي .. وهو سعيد جداً لأن الذي التصق بأسمه من اغنيته الراقصة (فرفشه .. بحبحه) هو الاول والا كان اسمه اليوم عثمان بحبحه .

بيت الفن السوداني

وادمدني : عاصمة الاقليم الاوسط .. وقلب الجزيرة النابض.. شهدت في فترة من تاريخها اكبر تجمع فني غنائي .. كان فيها ابراهيم العبادي .. وعلي المساح .. وعبيد عبد الرحمن .. ومحمد علي الامي .. ومحمد خير عثمان .. وميرغني عشرية .. ومحمد بشير عنيق .. وسرور وكرومة وغيرهم من المبدعين التاريخيين .. كانت تجمع بينهم المدينة .. ومشروع الجزيرة .. وبيوت اللعبات .. وانديتهم الخاصة وهي في الغالب الاعم منزل الشاعر (الامي) ومن قلب هذا الخضم المبدع .. تمت وترعرعت ملكات الشبلي سعدابي .. وابراهيم الكاشف .. وعوض الجاك .. ومحجوب عثمان ورمضان حسن .. ومحمد الامين وغيرهم .. وذات يوم من الايام الضاربة في القدام .. اخريات العشرينات .. والفصل خريف .. وما اجمل الخريف في وادمدني .. كان من ذكريات المبدعين في مقدمة هذه السطور من بينهم .. جميعهم .. وهو بيت محمد علي الامي . وكان المطر ينهمر عزيراً وتفتحت ثغرات من السقف .. ثم اخذت كتل من الطين تتساقط من الجدران .. فاصيبوا بالهلع .. وقال العبادي ملطفاً للجو التعس المشحون بشتى الانفعالات .. وعلى طريقته .. قال : اذا سقط هذا البيت علينا .. مات فن الغناء في السودان موتاً جماعياً في لحظة واحدة ..

في ذلك الجو ولد الكاشف الفنان .. في احضان كل تلك القدرات .. والى جانبه . وقريباً منه . كان المساح .. الذي تحيط

بمكان عمله مجموعة اشياء حياتية مدهشة . . كـانت المكتبات . . والمغلق . . والعجلاتية وما اكثرهم . . ثم مطعم العم شعبان الذي تخصص في تقديم وجبة الفول وحدها . . فالحلاقين واشهرهم في المنطقة (مصطفى ابو صقر) ثم المقاهي . واشهرها قهـوة (علي بوزمات) وقهوة الامين . الثانية اجتذبت الرواد اكثر من أي قهوة اخـرى . . وكان الشعب اسمـاعيل عبـد المعين والسـاكن جبـال التاكا . . فلاول مرة في التاريخ . . يستمع الذين على هواهم مغنياً تقف من خلفه اوركسترا . . واهم منها انه يغني بطريقة جديدة . . ليست الحقيبة التي الف . . لكنها خطوة متقدمة كان في انتظارها على شوق . .

في تلك السنين كان سكان المدن . . عواصم المديريات بصفة خاصة يتفاخرون بما اعطوا من الرجال والمال واعمال البـر لبقية السودان . . واهل وادمـدني كانـوا يعتزون بـذلك كثيـراً . كانـوا متعصبين لابنهم مأمون بحيري الذي نهل من فيكتوريا الاسكندرية والآن في انجلترا ينهل من جامعاتها . . وكانوا يفاخرون بابنائهم في المدارس العليا . الهادي احمد يوسف الشاعر الفنان . . وابـراهيم مصطفى شرف الدين . . ويوسف محمد عبدالله الكارب . وسليمان أحمـد سليمان . ومحمود محمـد جـادين . والامـين محمـد احمـد كعوره . . اما مدرسة كتشنر الطبية . . والدكاترة ولادة الهنا فأمرها عجب فقد كانوا يتابعون اخبار د . دفع الله مصطفى وعبد الرحيم ابـو يس . . وعثمـان الحضـري . . اينـما كـانـوا في السـودان او خـارجه . . كـانوا يحصـون الضباط في الجيش وفي البـوليس وفي السجون . . كانت المدينة اسرة واحدة . . همها الاول ان تتفوق على غيرها من المدن . . حتى ابطال الوطنية والادب وبعد ذلك كله كرة القدم فيها وانديتها . . وعلى رأسها النيل والاهلي والاتحاد . . والمع

اللاعبين محمد كرار وابو حمامه وبادي وسعد احمد ابراهيم . . ونادي النيل لعب دوراً بارزاً في تقديم الكاشف الى الجماهير .

تعبت حبوبة ابراهيم الكاشف من ملاحقة الفنان الصامد الصابر . . الذي انتقل من مرحلة الشيال الى المطرب القائم بذاته . . والذي كانت الاسر تحجم عن طلبه لاحياء حفلاتها خوفاً من اغضاب اهله . . غير ان نادي النيل الرياضي . . وعلى رأسه عبدالله علي شدو كان نشاطه قد امتد ليشمل الى جانب كرة القدم مجالات اخرى . بينها التعليم . فالمدرسة الاهلية العريقة في وادمدني . بدأت (كتاباً) داخل النادي تحمل اسمه . . ومواسير (شركة النور) التي وصلت المقابر كانت من فيضه . . واول استاد لكرة القدم كان استاده ويحمل اسمه . . ولهذا الاستاد قصة بطلها محمد كرار مؤسس نادي الاتحاد الذي انشق عن النيل . . الذي دعا احد فرق المقدمة في العاصمة . . واتفق على ان تكون المباراة باستاد النيل . . لكن صاحب الاستاد غيّر رأيه قبل المباراة بساعات . . فما كان من جحافل الاتحاد بقيادة محمد كرار الان أن يسوروا بجوالات الخيش وادوات المولد الخشبية من أعمدة وغيرها ميدان الملك آنذاك جنوب مبنى المحكمة الشرعية . فتقام المباراة وتنجح نجاحاً منقطع النظير مؤازرة من سكان المدينة على اختلاف ميولهم الرياضية . . تقديراً للشجاعة والبذل والعرق . . وقبل ذلك الاصرار على النجاح .

احتضن الشيخ عبدالله علي شدو . . فن الكاشف جنباً الى جنب مع احتضانه المسرح . . ومن خلفه نادى النيل كله . . وصعد الى خشبة المسرح . . في وقت لم يعرف فيه المسرح بل لم يعرف السودان (المايكرفون) وغنى الكاشف . . كان واثقاً من نفسه باعلى اجمل الاصوات فسمعه الحضور وطربوا له . . فهذه خطوة اخرى

متقدمة انتظرها الناس كثيراً بعد اسماعيل عبد المعين . . فرض فنه على طلاب المدارس العليا وقتذاك . صغيرون الزين ومحمد احمد كعورة ومحمود محمد جادين . . عزفوا من خلفه وكانت الاوركسترا الاولى والاخيرة على ذلك المستوى وحين جاء الكاشف الى الاذاعة بعد حسن عطيه واحمد المصطفى جاءها تسبقه شهرته كمطرب كبير . وفنان له قاعدة شعبية عريضة . ولد بسنونه الفنية . . وتاريخ فن الغناء في السودان شهد تاريخياً ثلاثة من افذاذه ولدوا مدججين بالفن المتقدم اولهم محمد احمد سرور حين قضى على الطنبور فاخترع الحقيبة وثانيهم الكاشف الذي عرف الغناء مع الاوركسترا قبل ان تعرفها الاذاعة . . وثالثهم الكابلي الذي دخلها فناناً درجة اولى دون ان يمر ببقية الدرجات .

وتعقد الصداقة حميمة متينة بين الكاشف وعبيد عبد الرحمن شاعر سرور . . الذي لم يقدم شعره لغيره الا للكاشف . . وجعل شعره بعد ذلك وقفاً على الكاشف . . وبشهادته شهادة عبيد عبد الرحمن ان ابراهيم الكاشف هو السبب المباشر في اعتزال سرور للغناء وليس الحج . فقد اعلن في ختان اطفاله ان خليفته في الساحة هو ابراهيم الكاشف الذي نصبه عميداً للفن . . فترة وجيزة مازال عبيد عبد الرحمن يلوم نفسه عليها . . حين اختلف المطربون بتحريض من الكاشف مع الاذاعة . فاضربوا عن الغناء . . طلبت الاذاعة من شعراء الاغاني ان يخففوا تعاونهم مع المضربين وان يأتوها بمطربين جدد . فكان رمضان حسن ومحجوب عثمان واخرون . . والكاشف عالم فني قائم بذاته . . بدأ بالسحارات مهنياً . . وكان الغناء هوايته . . فانشأ مصنعاً حديثاً للموبليات . . معرض انتاجه كان عمارة جامع فاروق بالخرطوم او الجامع المصري .

مدني في زمان الكاشف . .

كانت وادمدني . . تلتقي بكروان السودان كرومة مـرتين في مناسبتين هامتين . . احداهما ، من حين لاخر . . اما الثانية فتكاد ان تكون ثابتة ثبوت الاحتفال السنوي بالمولد النبوي الشريف . . والمولد في عاصمة الاقليم الاوسط . . كانت ساحته في الماضي . . الفناء الكبير جنوب المدينة الذي اتسع لميدانـين من ميادين كـرة القدم . . احدهما يستغله النادي الاهلي في تمريناته الدورية والآخر تستثمره الرابطة في تمريناتها . . والرابطة هي النادي الرابع في ترتيب الاقدمية . . ومثلما كان الاتحاد محسوباً في الاساس على النيل . . فان الرابطة كانت محسوبة على الأهلي . .

ساحة المولد كان مكانها ذلك الفضاء الفسيح الذي يحد شرقاً بالمدرسة الاغريقية . . وغرباً بمساكن واصطبلات وعربات الكـارو المملوكة لعلوي اليماني . . وشمالاً بالسكة الحديد . . وجنوباً حيث تبدأ المدينة . . اسكانياً . . ومن اشهر المساكن في تلك المنطقة . . منزل لأسرة يعرفها جميع سكان وادمـدني . . ذلك لان صـاحبته امرأة . . صابرة . . مجاهدة . . مناضلة مات عنها زوجها تاركاً خلفه مجموعة من الصغار انكفأت فوقهم متحملة وظيفة الاب والام معاً في تربيتهم . . كأحسن ما تكون التربية . . وافضلها . . وتلك صفة لم تنفرد بها هذه السيدة الجليلة . . فمثـل ظروفهـا تعرضت لـه الكثيرات لكن الاختلاف بينها وبينهن . . هو انها السيدة الوحيدة التي افتتحت كنتينا . . بل والسيدة الأولى التي مارست عملاً كان

قبلها وقفاً على الرجال . . واسم السيدة هو برينسه . . ولها من الابناء والبنات . . مما بارك الله لها في تربيتها لهم فكانوا من خير ابناء هذا الوطن . . وبناته . .

ذلك وصف لساحة المولد في ذلك الزمان . . اما بداية المولد نفسه فان قصصاً كثيرة تروى عنها ولعل اشهرها على الاطلاق هو ان الاحتفال به بصورته التي نراها اليوم ، جاء بعد الادارة الانجليزية للسودان . . قبلها كان يحتفل به الناس في بيوتهم . . والطرق الصوفية في مقارها . . وكان ليوم واحد فقط هو الليلة الكبيرة في عالم احتفالات اليوم . . والذي ادخله بشكله الحالي هم المصريون . . واصل الاحتفال بهذا الشكل مصري ابتدعه الفاطميون . بدأ بان كانت للشيخ على شدو خيمة . . وللشيخ عثمان زياد خيمة . . وللاحمدية السطوحية خيمة . . ثم خيمة رسمية للدولة اسمها خيمة الحكومة . . وكان المسئول عنها عمدة المدينة . . وعندما ازدادت اهمية الاحتفال بصورته الجديدة بين الناس . . اصبحت خيمة الحكومة مسئولية مأمور المركز . . وهو منصب عظيم الخطر في تلك الايام . . فالوظائف الكبرى التي وصلها السودانيون . . هي المأمور فنائب المأمور ثم باشكاتب المديرية فرئيس حساباتها . . فناظر المدرسة الوسطى ثم وكيل البوستة . .

وفضيلة القاضي الشرعي . وكان الاول والثاني يرتديان زياً معروفاً من الكاكي . . تفرق بين رتبتيهما شريط البرنيطة . . واشرطة الجاكتة . . وباستثناء فضيلة القاضي الشرعي فان الاخرين كانوا يرتدون البدلة التيل البيضاء كاملة . . مع الطربوش الاحمر . . ويمتطون ظهور الحمير . . والحمار كان عهدة فهو من ممتلكات الحكومة . . خصصت له من يعتني بشئونه . . ويتسلم هؤلاء بدل

عليقة للحمير . . وهو ما يقابل الآن سيارات الحكومة . . او بدل الميل الذي يدفع للذين يستخدمون سيارتهم الخاصة في اعمال الدولة الرسمية . . بينما كان المأمور ونائبه يمتطيان صهوات الخيل .

لم يكن المولد مخطط الساحة . . يعرف صاحب كل خيمة موقع خيمته سنوياً . . وانما مع مطلع كل مولد يستطيع كل صاحب خيمة أن يحدد المكان الذي يرتئه ويناسبه وكثيراً ما حدثت مشكلات بين علي شدو وعثمان زياد الامر الذي جعل الحكومة تتدخل . . فتحدد المواقع وبخاصة بعد أن دخل الساحة السيدان الجليلان . . على الميرغني وعبد الرحمن المهدي . . فاقام الختمية سرادقاً كما أقام الانصار سرادقاً . . وانفصل العمدة حفيد مدني السني عن خيمة الحكومة وباتفاق معها ليقيم سرادقاً عرف بأسم العمدة . . ووصلت الزينات الكهربائية . . واصبح المولد مناسبة ترويحية وترفيهية وثقافية . . وتراثاً اسلامياً تسبقه زفة . . اصبح عيداً اضيف الى الاعياد الرسمية ولا يزال وسيظل الى ما شاء الله . . وكان الصغار يتحدثون في مجالسهم عن زيارة مدير المديرية لساحة المولد في الليلة الاخيرة او الكبيرة . . زاعمين ان الهدف منها هو ان يقرر بعد طوافه على (الخيم) ايها استحق مركز الصدارة من حيث الجاذبية والجمال . . وكانت خيمة الانصار هي الاكثر جمالاً وجاذبية . . فان ديكوراتها لا تجارى . . وكان الشيخ عبد الرحمن نقد الله هو وكيل دائرة المهدي في مدني . والشيخ عيسى ابو عيسى هو وكيل دائرة الميرغني فيها . وكانا موضع الاحترام والاجلال من الناس جميعاً . . غير ان زعم الاطفال حول اي (الخيم) كانت الاولى . . وكان التنافس دائماً في ظنهم بين الختمية والانصار . . امتد ذلك الزعم الى (ركوبة) الوكيلين . . اي الركوبتين اكثر اصالة واجمل شكلاً بين الحمير قاطبة . . وللحقيقة ان عبد الرحمن نقد الله وكيل دائرة

المهدي . . كان يمتلك حماراً اسود اللون كاتماً طلي جسمه بالماس . . وكان يسير على الارض في خطوات موقعة وئيدة . . والرقبة مرتدة الى الخلف كفتاة ترقص في بيت (لعبة) وكان سراة القوم يسعون لاقتناء اناث الحمير حتى اذا ما حظي احدهم بواحدة مشهود لها بكرم المحتد . . جيء بها بعد الاذن ليتم تعشيرها في ميدان صغير امام منزل آل نقد الله ومن حماره الاسطورة . . وكانت مناسبة تجمع الناس . . يقوم بعملية التعشير خبراء صقلتهم التجارب . . ويطرد من حول الميدان الاطفال الذين في الغالب لا يسمعون الكلام . . اما خليفة الخلفاء ، عيسى ابو عيسى ، فإن حماره اكثر طولاً يتمتع برقبة مرتدة الى الخلف ولكن ليس بتلك الرشاقة . مع لون اعتاد خبراء الوان الحمير أن يطلقوا عليه اللون الحمامي وهو لون رمادي .

مناسبة المولد النبوي الشريف ، هي المناسبة التي يلتقي فيها مواطنو المدينة بكروان السودان كرومه . . ولكن ليس مغنياً مطرباً ، على الرغم من الرق في يده ومجموعة الشيالين من خلفه . . وانما كمنشد في سرادق الانصار ينشد قصائد بعضها للعبادي وبعضها لمحمد خير عثمان العباسي ، وبعضها لآخرين ، والمدهش انه في مكانه ذاك . . وفي انشاده ذاك . . وبصوته الذي عرفه الناس فاحبوه وطربوا له . . لم يستطع ان يجتذب حتى جمهوره . . واكبر الظن ان السبب يعود الى انه جاء بما لم يألفه الناس عنده . . ذلك أن اكبر مميزات كرومه وخصائصه الفنية . . تكمن في أنه ملحن مطبوع . . وذلك تأكيد جديد ، بعد ثبوت صحته . . ان عالم الاغنية يقوم على اربع ركائز . . اولها اللحن . . فالكلمات . . ثم الصوت . . فالجمهور . .

والمناسبة الثانية التي يلتقي فيها كروان السودان بمواطني مدينة وادمدني .. هي في واحدة من زيارات السيد عبد الرحمن المهدي للمدينة .. في الامسيات ينشد الناس قصائده التي اعتاد التغني بها في الليلة قبل الاخيرة في المولد النبوي الشريف .. وهناك بطبيعة الحال مناسبات ثالثة ورابعة ومائة .. هي حين يكون استدعاؤه خاصاً .. من بعض الاسر لاحياء حفلات اما (لعبة) او (سماع) والفرق بينهما ان الاولى ترقص فيها الفتيات .. والثانية غناء بلا رقص . وذلك ما لا يحفل به الشباب من الجنسين .

وزفة الليلة الكبيرة للمولد النبوي الشريف .. تشترك فيها وتنظمها الحكومة .. يقودها مفتش المركز وهو بريطاني الجنسية .. ويحيط به المأمور ونائب المأمور والعمدة ومشائخ الحارات تتبعهم موسيقى البوليس .. ثم طابور من رجال البوليس يتقدمهم القومندان الانجليزي وكبار الضباط .. ثم الكشافة .. فسائر الطرق الصوفية يتقدمها مشائخها .. ثم يجيء دور المهنيين نجارين .. حدادين .. حلاقين .. عتالة .. بنائين وهكذا .. يتفاخرون بالمهنة التي ينتمون اليها .. وحين تسمع هتافهم المنغم (العز لمين .. للحلاقين) تشعر بان تلك المهنة هي اهم مهنة على ظهر الارض .. كانت تلك المواكب المعروفة باسم الزفة مهرجاناً ثقافياً .. يتحلل فيه الجميع من الصرامة والجدية ليلهون .. ويفرحون .. وينشدون في اكبر مظاهرة لساعة تجمع بين ان تكون للقلب وللرب في نفس الوقت .. وتلك الاحتفالات .. السابقة للمولد واللاحقة له .. كانت ملهمة لعدد كبير من شعراء الاغنية .. كان بعضهم وهو يسير مع الزفة يسترق السمع لتعليقات من اصوات رطبة ندية خلف ابواب السنط .. ثم يتجهون بانظارهم الى حيث مصدر الصوت فيرون حدقات للعيون تلمع من خلال شق

من شقوق الباب . . ثم يسرحون بخيالهم الى آفاق حالمة تصل ماضي قعدات بحاضر . . فتكون قصيدة جديدة سرعان ما تنتشر .

والشاعر الخالد عبيد عبد الرحمن واحد من هؤلاء . . فان كل ما جادت قرائح التاريخيين من شعراء الغناء في السودان امثال العبادي وود الرضى . . والامي . . وسيد عبد العزيز وصالح عبد السيد وعتيق وعمر البنا وعبيد عبد الرحمن . . انما قيل في فتاة كانت ترتدي فركه ام صفيح . . وتوب كرب ابيض . . أو اسود وتوب زراق . . وهي لا تملك اكثر من واحد من كل ما ذكرت . . وهنالك الكثيرات جداً . . ربما كان الاغلبية لا يستر اجسادهن سوى (الرحط) . . لقد قيل أجزل الشعر واجمله ، في اجمل الناس (ليس الجمال بأثواب تزيننا) . . ولم يستطع كرستيان ديور ولا ماكسي اند سبنسر وبيوت الازياء العالمية بكل ما ابتكرت من ثياب وزينة . . وموضة . . أن تحرك مشاعر انسان مبدع ليقول ما قاله اولئك الافذاذ وتغنى به المطربون وتناقلته الالسن بعد ذلك تردده في ساعات صفوها . . وكلما هفا بها شوق أو حنين . . الى ما كان يحن اليه شباب تلك الايام . . كاسراً لقيوده بأدوات من خيال . . تلجمها تربية نابعة من روح الاسلام واخلاقياته .

ذلك كله عاشه ابراهيم الكاشف . . وعاش معه أن اتيحت له كما اتيح لغيره أن يلتقي مرة في الاسبوع بالعليش ابسمه . . ولي من ابي حراز . . واحد الرجال الصالحين . . احتار الناس في امره . . والبعض يجزم بأنه اعمى لكنه يرى . . اذ كيف يجيء على ظهر حمار من ابي حراز . . ويطوف اماكن معروفة ويسير في طرق معروفة . . ويتصل بأسر معروفة . . ويستطيع ان يستوقفه اي انسان في اي مكان . . ويتقدم منه ليس بشيء في نفسه . . ثم تكون

الفاتحة . . وفي العصير الهالك يعود الى ابي حراز مرة ثانية . . كيف يحدث ذلك من شخص لا يرى . . !!

شيء واحد عن الشيخ العليش ابسمه اجتمعت عليه كلمة الناس . . انه لا يقضي ليلته في وادمدني . . ذلك لانها اذا ما بات فيها (العليش ابسمه) فانه سوف تحرق . . او تغرق .

علامات في شوارع مدني

ود اللول .. زينب ام كدر .. تضاربت الاراء حـولها .. فالاغلبية تعتقد في صلاحهـا .. فالاول شخص رقيق الحـال .. وديع .. اذا صفحته على خده الايمن ادار لـك خده الايسر .. كالمسيح تماماً .. لا يؤذي بعوضة .. ولكن حين يوجعه الالم احياناً بالضرب . فإنه يصرخ .. ويبكي .. وتسيل الدموع على خديه .. فيـزداد وداعة ورقـة والويـل بعـد ذلـك للذين اوصلوه الى تلك الحال .. يؤدبون بعلقة ساخنة . كافية جداً لكي يتعلموا مكانة هذا المخلوق في مجتمعه .. أنه رث الثياب .. حافي القدمين .. سريع الكلام وكلامه الصادر عنه جملة واحدة لم تتغير ابداً .. والجملة هي (اديني ملين .. عليـك الله اديني ملين) ليس عنـده غـير هـذه الجملة .. لكنه يتكلم مرة أخرى حين يوجه اليه السؤال .. من أين جئت والى اين تذهب .. والكلام يخرج من فيه سريعاً كطلقات الرصاص من مدفع رشاش .. وخطواته على الارض سريعة مثل كلماته فهي أقرب الى الهرولة منها الى المشي السريع . صدره مبتل دائماً ببصاقه .. فهو يبصق في جلبابه مكان الصدر بواقع مرة في الثانية .. ويفعل ذلك وكأنما البصاق خارج من بخاخة وليس من فم .. ومع ذلك فإنه لم يصب بنزلة .. أو يصاب ببرد .. طريقه واحد لم يغيره طوال حياتـه .. وكذلـك موعـد خروجـه وموعـد عودته .. ولكنك وأنت مطمئن أن تستفيد من غدوه ورواحه في معرفة الوقت .. وعلى الرغم من كل ذلك فإنه محبوب جداً لا تعافه النفس .. اذا اردت اضحاكه من القلب وبصوت مرتفع .. حدثه

عن الزواج . . وعندما تعلو ضحكات ود اللول يعرف الشارع كله . . وبخاصة الحبوبات اللائى يذهبن الى السوق لشراء اللحمة والخضار . . ان الكلام دخل الحوش . . اين تذهب الملاليم التي يجمعها ود اللول . . انه يتصدق بها لمن يطلبها منه . . فهو انسان لا مطلب له في الحياة الا ان يعطي ما يأخذ . . وكانت بعض النساء يطلبن اليه . ان يدعو لهن فان ابواب السماء مفتوحة امامه . . وما كان ليتردد ابداً . . لكنه كان يسبق ذلك بطلب تقليدي . . هو ان يعطي مليمًا . . وغالباً ما كان يتسلم المليم عن الدعاء مقدماً . . كان ود اللول ظاهرة تعرفها وادمدني كلها وتتعامُل معها بكل الرقة والود والحنـان . . كان اقـرب اصدقـاء ود اللول الى قلبه . . ابـراهيم الكاشف .

اما زينب ام كدر . . فهي شخصية غريبة الاطوار . . تجيء الى السوق ساعية اليه من اقصى المدينة . . من غـربها . . تسـير مسرعة . . كل صباح اذا سمعها من لا يراها وهي تتحدث يخيل اليه انها انما تحادث اناساً يمشون معها في الطريق . . وعندما ينتهي المشوار في السوق . . لابـد لك من ان تعجب . . ولـماذا كانت السرعة اذن . . انها في حالة شجار دائم مع مجهول . . فحين تبدأ خطواتها الاولى في مشوارها اليومي . . فان اول من يصادفها . . يشاغلها . . ثم تبدأ هي في الرد عليه بقية المشوار الى أن تصل السوق . . احد قدميها مبتور . . ومن هنا جاءت التسمية ، حريصة على استخدام المكحلة فذلك واضح الاثر في عينها . . ثوبها زراق نظيف . . ويبدو شكلها مضحكاً جداً حين تلبس ثوباً جديداً . . فان صبغته تغطي جسدها كله . . فيصبح لونها من لون الثوب من لون الكحل في العينين . . ويكون الحديث في الطريق كله عن ذلك الثـوب . . وتكـون الـروح المعنـويـة عـاليـة جـداً . . تكـثر من

المداعبات . . ومن الكلمات الطيبة . . ومن الابتسام واحياناً الضحك . . وفي فترات اخرى . . وما اخلها ينقلب الحال الى هيجان . . وشراسة . . لا يسلم مار في الطريق من محاولاتها لاصابته بحجر . . فهي تملأ طرف ثوبها بالحجارة ثم تقذف بها الناس في كل اتجاه . . وسرعان ما يفرغ الشارع من المارة . . والاطفال على وجه الخصوص . . وعندما يشتد سخطها وتثير الرعب بين الناس . . ينبري لها احد ثلاثة اشخاص . . محمد حكيم . . صاحب ورشة حدادة تجاور البنك الاهلي المصري . . وقهوة ودالعود . . وكانت مثل هذه الورش مثلها مثل الدكاكين . . مكانها بينها في السوق . . فالمنطقة الصناعية لم تخترع في تلك الايام . . اما الثاني فهو الدوشي . . عجلاتي . . على مقربة من ورشة محمد حكيم . . والثالث كان ابراهيم الكاشف . . عندما يتجه نحوها احد هؤلاء الثلاثة . . فسرعان ما تهدأ لأن الاول . . محمد حكيم يمتص ثورتها بما له من تأثير عليها فهو يمدها من حين لآخر بثوب جديد . . زراق . . ويمنحها من وقت لآخر بعض المال . . اما الدوشي . . فانها تخشاه . . وتخافه . . الكاشف وحده . . الذي لا يرهبها . . ولا يمدها بمال أو ثوب . . يتجه نحوها بابتسامة عذبة . . فتدنو منه كالقطة الاليفة . . فسر تأثير الكاشف على زينب ام كدر لاهتمامات فنية مشتركة . . فكلاهما يربط في ساعده مجموعة من الاحجبة المجلدة . . كتبها لكليهما العليش ابسمه الذي يعتقدان في صلاحه . . وفي ابي حراز عموماً عاصمة العركيين ذات التسعة والتسعين بنية . . الشهيرة بكرامات رجالها . . التمساح خاطف جلوك الذي تحول بضربة من سبحة الى حجر . . والقبة التي بناها الملائكة . . عندما اختلف القوم وانقسموا الى فريقين . . كل يريد أن يستأثر بالبناء دون الفريق الآخر . فأشار عليهم احد المشائخ

بتأجيل الخلاف حتى الصباح . . وعندما عادوا الى المكان ومالهم ان يجدوا قبة قائمة بناها الملائكة نيابة عن الفريقين . .

وكانت زينب ام كدر قد تخصصت في المفتش البريطاني . . والمدير البريطاني لا تشتم غيرهما . . وتعالت على المأمور ونائب المأمور . . لكن العمدة ابراهيم السني لم ينج من مأثور تلك الشتائم . . وذلك بطبيعة الحال ، كان تكريماً له وليس انتقاصاً من شأنه وتقليلاً من مكانته . . فالعمدة ابراهيم السني كان يتمتع بشخصية قوية . . قدرها الحكام ولم يتجاهلها المواطنون . . فهو حفيد لصاحب القبة المسماة المدينة بأسمه . . وادمدني السني . . وربما كان ابنه . . فلست متأكداً تماماً من طبيعة هذه الصلة . . من ميزاته الكبرى ان خدماته الانسانية دخلت بيوتاً كثيرة في المدينة . . ودون من او سلوى . . ودون ان يعرف انسان كائناً من كان بذلك . . فالذي يعرفه عنه الناس . . انه رجل خطير الشأن . . يعرف كل كبيرة وصغيرة مما يجري في المدينة . . اذا وقعت سرقة . . فإنه يعلم بها قبل البوليس . . ويقبض على اللص أو اللصوص ويسلم المحكمة قضية جاهزة . . وكان مستشار البوليس الاول في كل القضايا الغامضة . . ولم يعرف عنه العجز في اي مشكلة طرحت امامه دون ان يجد لها انسب الحلول المتاحة . . وذلك هو التعريف العلمي الحديث للذكاء . والذكاء بمفهومه العام كان يعرفه عنه الناس . . وفي تلك الايام درج الناس على الوقوف اذا كانوا جالسين تحية لأي بريطاني حين يمر بهم . . والا سيعاقب بالغرامة او الجلد او بالعقوبتين معاً . . لكن الناس اعتادت ان تقف تحية لشخصين . . حسين عبد العظيم . . المأمور . . وابراهيم السني عمدة المدينة . . اعجاباً بهما . . فالاول كان مشهوراً بكثرة مصادماته للانجليز . . والثاني كان مشهوداً له بايجاد الحلول لكافة المشكلات . . وبينها

تخليص الرقبة من حبل المشنقة وكانا صديقين حميمين . . المأمور والعمدة . .

ومن اعضاء اسرة صاحب القبة المسماة المدينة باسمه . . احمد أو محمد عبد الماجد . . شخص طويل عـريض صارم . . شكله العام لا يوحي بأنه كان احد الذين كان يخشاهم الخليفة عبد الله التعـايشي . . ولهذا جـاء به الى ام درمـان ليكـون تحت رقـابتـه المباشرة . . فلم يكن يبدو على الرجل الا شيخوخـة حديثـه . . خرجت به من مرحلة الشباب قبل دقائق محسوبة . . لم يعرف وجهه الابتسام ابداً والصرامة عنده ليست تكشيرة . . وقيل ان الخليفة عبدالله رأى ان يضعه دون سائر الذين يخشاهم تحت رقابته المباشرة بأن عينه مؤذناً بين اربعين من المؤذنين . . لقد كان يؤذن للصلاة هذا العدد الضخم قبل كل صلاة . . بأن يصعدوا الجدران كلها ثم يؤذنون . . واختار الخليفة ، حائط جامعه وفي المكان الاقرب الى بيته ليكون منطقة احمد او محمد عبد الماجد . . يؤذن منها . . وقيل ايضاً أن الخليفة ساورته الشكوك فيما يردد صاحبنا في آذانه . . ولهذا طلب ذات يوم من كبير المؤذنين أن يتفق معهم على تمثيل الآذان دون أن ينطقوا بحرف منه في مكان معين منه حتى يعرف بماذا يقول احمد عبد الماجد . . وقد كان . . وأصبحت شكوك الخليفة يقينا حين سمع صاحبنا . . يؤذن قائلاً شيء عجيب . . شيء عجيب . . شيء غريب . . وهكذا الى أن انتهى الآذان .

اما ما جرى له بعد ذلك . . فإن ذاكرتي . . توقفت قبل أن تعيه . . وقد أمد الله في عمره . . فتجاوز القرن بكثير فقد نعته الاخبار قبل سنوات قليلة رحمه الله .

وفي تلك الايام . . كانت الاختلاسات قليلة . . كحوادث . .

وكمال فاننا نسمع بالمختلس في اي مكان في السودان . . والمبلغ الذي اختلسه . . وكانت جرائم السرقة قليلة . . أكثر منها جرائم القتل . . في العرض والشرف . . ولأسباب كان بين الممكن اذا قدر لها أن تستمر . . لنقص عدد السكان كثيراً عما هو عليه الآن . . أما الجرائم اليومية . . فهي الذبيح داخل البيوت . . (الكيري) . . وحملات ضبط الخمور البلدية . . والخمور الافرنجية التي تاجر بها المصرح لهم من غير السودانيين . . وكان ضبط هذه المخالفات الثلاث . . تخصصاً لضابط بوليس عرف بالشدة . . والقسوة . . فالبوليس كان غير البوليس الذي نعرف الان . . فالبوليس الآن . . يذكر بالآية الكريمة ، (الذي اطعمهم من جوع . . وأمنهم من خوف) . . بينما كان في الماضي . . هو الخوف بعينه . . الى الدرجة التي جعلت واحداً منهم من ابناء الاسرة المعروفة في ام درمان يدل بقولته المأثورة . . لو كان اصبعك بوليساً فأقطعه . . والعياذ بالله . .

كانت الخمور ممنوعة ومحرمة بحكم القانون . . ما عدا المريسة . . الخمور المستوردة كانت وقفاً على الانجليز وبقية العناصر الاجنبية مثل الاغاريق وهم تجارها في الاصل . . والارمن . . الخ . . ولان العلم المصري كان يرفع الى جانب العلم البريطاني . . رمزاً لثنائية في الحكم (بالعلم) فقط ولمقتضيات السياسة . . فإن المصريين لهم امتيازات الخمر . . وامتياز آخر بالاكراه . . هو تحريم ركوب قطارات السكة حديد في أقل من الدرجة الثالثة . . الشيء الذي جعل من بعض السودانيين من غير المسلمين . . أن يتاجروا بهذا الامتياز . . أن يشتروا كميات كبيرة من تلك الخمور . . الرخيص منها كالبيرة والشيري . . ويبيعونها بأسعار مضاعفة . .

ومن الطريف أن المفتش البريطاني .. مفتش المركز .. صادف مشكلة رهيبة .. عجز عن حلها .. فرفعها الى مدير المديرية الذي افتى فيها بعد ثلاثة اشهر كاملة .. واحدة من اغرب الفتاوي .. ذلك أن شخصاً ابيض اللون .. الى الحد الذي يخدع معه حرس المديرية فيحيه بالسلاح ظناً منه .. انه انجليزي بين الانجليز .. ذلك الشخص اقتيد من محطة السكة الحديد الى الحراسة لانه مصري ضبط متلبساً بركوب الدرجة الرابعة في القطار .. وتلك جريمة شنعاء .. ومثل امام المفتش وهو قاض من الدرجة الاولى في نفس الوقت .. وسأله لماذا فعل ذلك .. قال ، لاني سوداني .. وضرب المفتش مكتبته بقبضة يده صائحاً .. أنت مش سوداني .. أنت مصري .. كده ولا لا .. قال صاحبنا يا جناب المفتش طبعاً انت مفتش تعرف كل شيء .. فاذا رأيت بأني مصري .. فأنا مصري .. قال المفتش .. يعني أنت مصري .. قال نعم .. قال اذن انت مذنب .. وحكمت عليك بغرامة ثلاثة جنيهات .. أو ستة أشهر سجناً .. والواقع ان سنة سجناً اهون من غرامة باهظة كتلك الغرامة في ذلك الوقت .. وأعلن المتهم المدان استعداده لدفع الغرامة من المفتش واسمه ديفيز .. أن يكتب له شهادة بأنه مصري .. وسأله المفتش لماذا .. ؟ فأنت مصري لا تحتاج لمثل هذه الشهادة .. اصر صاحبنا على الشهادة .. واصر المفتش على ابداء الاسباب المقنعة .. وهنا قال طالب الشهادة .. سوف تنفعني يا جناب المفتش في البار .. فان جميع البارات لا تبيعني الخمور الافرنجية لانني في نظرها سوداني .. ولانني اقتنعت لزمن طويل بوجهة نظر اصحاب البارات نفسي سودانياً . لهذا السبب عندما نويت السفر .. قطعت تذكرة درجة رابعة .. فأتضح ان السكة الحديد عندها وجهة نظر تختلف تماماً عن وجهة نظر

اصحاب البارات . . ولانه ليس من العدل . . العيش بجنسيتين في بلد واحد . . فان الفرصة الان متاحة لتصحيح ذلك الخطأ . . بشهادة من جنابك . . قال المفتش . . أنه لن يصدر شهادة بذلك . . فإن المصريين بالسودان لا يحملون مثل هذه الشهادة . . لكنه مقتنع بأنه مصري . . خالف القانون . . ومقتنع بعدالة حكمه بتغريمه ثلاثة جنيهات او السجن ستة اشهر . . وهنا قال صاحبنا فيما يشبه الانفعال . . يا جناب المفتش احنا هنا في السودان والناس في كل الدنيا يعرفون ان الانجليز هم احسن سكان الكرة الارضية . . واكثر ما يميزهم عن بقية الناس في العالم . . العدل الذي اشتهروا به . . فهل تعتقد انه من العدل ان اكون سودانياً في البار . . ومصرياً في السكة الحديد . وهنا سقط في يد المستر ديفيز . . وقال اذن نؤجل الحكم الى وقت آخر . . اترك عنوانك الى ان استدعيك . . ومضت شهور وصاحبنا في غاية السعادة لانه افحم المفتش . .

واستمرت سعادته تلك لمدة ثلاثة أشهر ، استدعى بعدها للمثول امام المفتش الذي ابتدره قائلاً . . يا فلان انا لم استطع الوصول الى قرار عادل في قضيتك ولهذا رفعتها الى سعادة مدير المديرية . . الذي طلبني أمس . وابلغني انه درس هذه المسألة من كل جوانبها . . واقتنع بانك مصري مائة في المائة . . ولهذا لابد من دفع الغرامة . . أو السجن . . أما عن الشهادة التي تثبت مصريتك ، فإنه لا يرى داعياً لاستصدار شهادة بذلك لانه لا يريدك انت شخصياً ان تشرب الخمر .

العدل على الطريقة الانجليزية

واستيقظت المدينة ذات صباح لتجد نفسها وقـد تحولت الى حواشة .. او نمرة .. او تفتيش .. فقد زحف اليها المزارعون من جميـع مداخلهـا .. وكلها مؤديـة الى الجزيـرة .. كبرى شـوارع الامبراطورية البريطانية للقطن والتي تستثمرها شركة بريطانية باسم الشركة الزراعية السودانية وتديرها في ذات الوقت .. اكبر المناصب التي يتـولاها السـودانيـون بـاستثنـاء الكتبـة والمحـاسبـين .. هي الصمودة.. ومفردهـا صمد .. البـاقي كله من الانجليز ومهمـة الصمد غيطيه فقط .. وجرت العادة أن يمتلىء (ودمدني كلب) مساء الخميس وصباح الجمعة بمئات الانجليـز .. وتمتلىء المـدينة بأعداد اكبر .. وكان من عادة الانجليز ان يحترموا المشاعر الدينية للسودانيين فان العطلة الرسمية عندهم هي الجمعة .. والويك اند هو الخميس ما عدا يوم الاحد فانهم يقصدون الى اماكن عملهم الساعة العاشرة صباحاً .. ذلك انهم يغشون الكنيسة الانجليزية بصلاة الاحد .

وكنا تواقين ان نشاهد قسيساً انجليـزياً .. ولكن ذلـك لم يحدث مطلقاً .. فالقسيس القبطي نعرفه جيداً ونجاوره في مكان السكن .. ونصادق ابناءه .. والقسيس الاغريقي كذلك .. وايضاً الشـامي .. نعرفهم معـرفة شخصيـة .. وعلى الـرغم من تعدد كنائسهم واختلاف مذاهبهم الا أن زيهم واحد .. ومن الغريب في تلك الايام .. ان مساجد ودمدني المعروفة كانت ثلاثة .. جامع

الحكومة . . وجامع البوشي . . وجامع عثمان زيـاد . . ثم زاوية الختمية الشهيرة ببيان سيدي الحسن . . وزاوية الشيخ حسن صلاح في الدباغة . .

امـا الكنائس فـانها كانت خمسـاً . . القبطيـة . . والشاميـة والاغريقية . . والانجليزية . . والامريكانية . . وهي كنيسة صغيرة داخل الارسالية الامريكية . . وتتولى امرها المس باركر . . وتعب الناس في البحث عن القس الانجليزي وكيف يكـون شكله . . زيه . . طريقة تعامله مع الناس . . هل هو قس متعال متعجرف كرجال الادارة من مفتشين الى كوموندانات بوليس . . واخيراً تم العثور على القسيس . . انه ليس قسيساً تقليدياً . . وانما هو مهندس اولاً . . ومدير لشركة النور ويدعي نايتفيل . .

زحف المزارعون نحو المدينة . . ثم تحركت قوات البوليس بقيادة المجر بيس . . وعاشت المدينة منذ ساعات الصباح الاولى اشاعات رهيبة . . المزارعون في حالة غضب وهياج . . وانها لثورة في الطريق . . والاولى من نوعها . . يتقدمها الشيخ حاسر الرأس والقدمين . . ملطخ بالطين . . ملابسه . . شعر رأسه الابيض . . وشعر لحيته الاكثر بياضاً من القطن . . يحمل نعليه في كفه . . يبدو عليه الاعياء كأنما قطع المشوار من قلب الجزيرة الى عاصمتها سيراً على الاقدام . . يحيط به نفر من كبار القوم . . الجميع يتحدث وباصوات عالية لم يعرف معظم الناس ماذا كانوا يقولون . . وان كان البعض قد عرف القضية . . فـالذي حـدث ان مفتشاً صغـير السن . . جاء حديثاً الى المشروع لاحظ بعض العيوب الزراعية في حواشة هذا الشيخ . . اسمه فيما اذكر المبارك . . ولو كان هو الحاج المبارك الذي قاد فيما بعد حركة المزارعين الى ان صار اتحـاداً لما استغـربت الامر . . فـطبيعة تكـوين شخصيـة حـاج المبـارك . .

قيادية . . فهو على درجة كبيرة من الحكمة . . والاستقامة . . ومخافة الله . . الى جانب ذكاء وشجاعة . . كل القضايا من حوله . . تحل في بيته وفي قريته الطلحة . . والمدهش . . انه يقبع الآن في كنتين لا اعرف ماذا يبيع . . هو واحد من التاريخيين من قادة العمل الوطني في تاريخ السودان . .

المفتش قال تعليماته الاخيرة وانصرف . . لكنه جاء اليوم التالي ووجد الحال على حاله فلم يتغير أي شيء . . فما كان منه الا ان يهبط من سيارته الموريس . . ويدفع الشيخ الى مجرى الري . . ابو ستة او ابو عشرين . . ثم ينهال على الشيخ ضرباً في كتفيه بعصا اعتاد حملها . . وانصرف بعد ذلك غاضباً . . هائجاً يزمجر بكلمات غير مفهومة وتجمهر المزارعون . . وكان زحفهم الكبير الى المدينة .

وحوالي الساعة العاشرة صباحاً . . الموعد الذي اعتاد فيه المستر بريدون مدير المديرية الوصول الى مكتبه . . كانت المدينة كلها هناك . . امام مبنى المديرية . . تضامناً مع الزراع في قضية لم تعرف تفصيلاتها بعد . . ووسط ميدان المديرية الشمالي . . ترك المدير سيارته . . وارتفعت الاصوات تتحدث اليه . . وهو طويل رزين يرتدي البدلة التيل البيضاء والبرنيطه . .

ولعل باشكاتب المديرية ورئيس حساباتها وناظر المدرسة المتوسطة ووكيل البوستة ببدلاتهم البيضاء تلك انما يجارون رسمياً مدير المديرية في زيه . . ما عدا لباس الرأس ففي حالته البرنيطة . . وعندهم الطربوش . . اقترب المستر بريدون من الشيخ وسأله عن شكواه . . رواها له بصوت هادىء . . وقال ان ذلك المفتش في سن احفاده . . كيف يتطاول عليه بمثل ما اخترق من خطايا . . واهانات . . ثم امتلأت عيونه بالدموع تأثراً . . وكان المدير يجاريه

في انفعالاته . . الى أن فرغ من روايته . . فنادى بأعلى صوته على الميجر بيس . . واسر اليه بكلمات لم يسمعها احد . . ثم اتجه الى مكتب رئيس الحسابات . . وتناول من الشباك سماعة التلفون . وادار القرص . . ثم اخذ يحادث مدير الشركة الزراعية . . انجليزي مثله ولعل اسمه آرشديل . . طالباً اليه بعربية واضحة حضور كافة المفتشين بالمنطقة . . حالاً ودون تأخير . . ولم تمض ساعات حتى اكتظ الميدان بالعشرات . . وهنا طلب المستر بريدن من الشيخ أن يتعرف على المفتش الذي اساء اليه . . فأشار اليه . . ولم يخطئه . . وسأله المدير عن القصة التي رواها الشيخ المزارع فلم ينكرها . . وهنا كانت جرادل الحريقة الحمراء قد امتلات بالطين . . ترجمة للكلمات التي اسر بها لقومندان البوليس الميجر بيس وطلب من الشيخ أن يتقدم فيلطخ ملابس المفتش بالطين الجاهز في جرادل الحريق . . وان شاء فليضربه بعصا القومندانية . . غير أن الشيخ اعتذر عن تلبية رغبات المدير . . شاكراً له عدله ووقفته الشجاعة مع الحق . .

وهي المرة الاولى التي ينتصر فيها بريطاني لسوداني ضد بريطاني آخر وكان المستر بريدن يشجع الشيخ على اخذ حقه والشيخ يرفض . . فما كان منه . . وقد امتلأ الميدان بصمت من جميع اقطاره الا ان يصيح شاكراً يا شيخ فلان . . انت رجل طيب . . تنازلت عن حقك باختيارك لسماحة نفسك . . لكن انا لن اتنازل عن حق الحكومة . . ثم نادى على الميجر بيس آمراً له انه لا يريد ان يرى المستر فلان مفتش الغيط في مديريته . . لا يريده ان يمضي ليلته هنا . . وانصرف الى داخل المديرية . . تتبعه كلمات الثناء والاعجاب من جميع المواطنين . . بل أن بعضهم ذهب الى القول . . بان الذي قال عن هؤلاء الناس ، انهم اشراف انما صدق

في قولته .. الا يذكركم هذا الذي حدث بعدالة لم تعرف عند حاكم غير عمر بن الخطاب رضي الله عنه ..

وانصرف المزارعون الى قراهم والى حواشاتهم والحديث عن المستر بريدن .. حباً واعجاباً وتقديراً فاق كل حد ولسنوات في المدينة وفي الجزيرة كلها .. واسقط في أيدي قادة الحركة الوطنية في ودمدني في ذلك الوقت .. اذ اصبح من المستحيل اشعال فتيل كراهية الانجليز ومصاولة الاستعمار طالما ان المستر بريدن أحدهم.. احد اولئك المستعمرين وبذلك التصرف .. استطاع المستر بريدن ان يؤخر المد الوطني سنوات وسنوات .. اذ تحول اكثر دعاة المواقف والمظاهرات .. الى ما يشبه الخجل .. عثمان شندي .. بابكر القباني .. عبد العال خوجلي .. وربما الذين سبقوهم .. لابد وان يكونوا قد شعروا بصعوبة المهمة .. ذلك ان بعض المواطنين اتجه الى توجيه الدعوات للمستر بريدن مدير المديرية في المناسبات الاجتماعية . وكان يلبي بعضها اذا سمح وقته بذلك لكنه باستمرار كان ينيب عنه احد رجاله بالتهنئة بالمناسبة وفي حالات اخرى كان يصحب معه سعادة الست .. ولعل الذين يذكرون ويتابعون مازالت مخيلتهم تعي حفلاً للشاي اقامه (يوسف) سواق المدير في منزله ليس بوصفه سائقاً للمدير وانما بوصفه قطباً من اقطاب نادي الاتحادي الرياضي .. وحضره اي الحفل .. اقطاب الاتحاد محمد كرار واحمد سليم حامد .. وعثمان صالح .. وموسى المنيس .. وامين حسن .. ومحمد خفاجه .. وطه سليم الحاصل على شراب الكلية في كرة القدم والذي يجيد هو واخوه احمد التحدث بالانجليزية بطلاقة .. وتشاء الظروف . بعد عقد أو يزيد من الزمان .. أن تشهد ودمدني (عدالة) انجليزية اخرى . بطلها هذه المرة . قاض اسمه ليندس في اشهر القضايا السياسية المتعلقة بأول انتخابات

تجـري في السودان تنفيـذاً لاتفاقيـة السودان التي انتهت بـاعلان الاستقلال في اليوم الاول من يناير ١٩٥٦ .

أبطال اللعبة الشعبية . .

كانت كرة القدم هي الاهتمام الاكبر عند المواطنين كافة . . وكانت تقودها جهتان . . الاندية . . والمدارس . . اما عن الاندية فكـان هناك نـادي المدينـة . . ونادي العمـدة . . ومقـرهمـا حي المدنيين . . غير انهما لم يعيشا طويلاً . . وظهر النيل وهو الاقدم . الذي احتوز على جميع لاعبي الفريقين . . وكان ابراهيم اسماعيل تسمي (ممـرض) وعامـر . الشهير بعـامـر الـدب . . (ممـرض) ايضاً . . ثم جاء بعد النيل . الاهلي . . وكانا فرس رهان . . اما الجهة الثانية فكانت المدارس التي تحتضن في كل نشاطاتها السلطات التعلمية . . فتقيم لها سنوياً المنافسات التي يحضرها مفتش التعليم البريطاني . . وكان اللاعبون يرتدون قميصاً يشبه جبة الدراويش . . لكنه غير مرقع . . فهو مصنوع من الدمور المنسوج محلياً والذي غزل المترار . يزينه شريط اخضر او احمر او ازرق داكن يحيط به من الترقوة حتى الـوسط . . ومن اسم الطريق الاول . . المـدينة . . واضح ان المقصود به ان يكون لودمدني كلها . . والفريق الاخر . اطلق عليه اسم العمدة ليرعاه العمدة الخطير ابـراهيم السني . . وكان ابرز من لعب للنادي الاهلي في تلك الايام الجاك رزق . . وحسـين سوسـه . . وادم شقيمه . . وعثمـان محجـوب . . وعـلي عقارب . . ومحي الدين دياب . . وكان من ابرز قادته من الناحية الاداريـة . . عباس الحضـري الذي تقلد رئـاسة النـادي لفـترات طويلة . . وعبدالله عبد الرحمن ويوسف شطه الذي كان صديقاً حميماً للمدينة كلها واقرب اصدقائه اليه ليس بينهم من يدين بولاء عاطفي

للنادي الاهلي . ومن الجانب الاخر . . كان يلعب للنيل الى جانب عامر وتسمى . . عبد الرحمن شدو وسعد محمد ابراهيم والزين . . وحسن مدني وجبارة وفريد طوبيا وحلاوة وحجازي . . وسليمان احمد سليمان خلال العطلات الدراسية . . وكان من ابرز من قادوا النادي ادراياً عبدالله علي شدو الشهير بشيخ بله . الذي كان مجرد ذكر اسمه يعني بالضرورة نادي النيل . . والحاج محمد هريدي وخضر طه شرف الدين . . الى ان حدث الانقسام في نادي النيل . . وتأسس الاتحاد الذي حل فيه محمد كرار مكان بله شدو في النيل . . ويرجع للاتحاد كل الفضل في تطوير كرة القدم في ودمدني . . وبالتالي يمكن الزعم بأن الفضل يعود اليه في دعم تطورها في السودان بما اعطت ودمدني للسودان وفريقه القومي من نجوم حققوا له الكثير من الانتصارات والبطولات . . دخل نادي الاتحاد الى الساحة الرياضية كالاعصار . . لانه جدير بقيادة شابة جديدة وباداء جديد وفذ حول لعبة كرة القدم من الفروسية التي تعتمد على العنف الى فن رفيع . . وسبقت محمد كرار شهرته كأحسن واجود واروع حارس مرمى شهدته الملاعب آنذاك . ولعله لا يتكرر ولما كان يقوم بحراسة مرمى الكلية التي كانت منافساتها كلها تقريباً ضد الجيش البريطاني . . كان خيالنا يصور لنا ان مباريات الجيش البريطاني تشارك فيها المدافع والبنادق والمسدسات . . نتناقل ان محمد كرار لا يستطيع ان ينحني انحناءة كاملة مع الكرة لالتقاطها لان سلسلته الفقرية كسرت في مباراة بين الكلية والجيش البريطاني مما استدعى ان تستبدل بسلسلة فقرية من الفضة وكنا نعجب بالبطل طلعت فريد الذي اعتاد ان يمطر مرمى البريطانيين بقذائفه وكان ذلك هو الميدان الوحيد الذي اعتدنا فيه هزيمة الامبراطورية البريطانية .

ولما كان محمد كرار حارس مرمى اسطورة كانت الانظار كلها تركز عليه .. فهو يساوي في بعض عصور كرة القدم صديق منزول وعصمت معنى وبادي الشهير ببنـك مصر .. وبنك مصر قـطعة قماش لبدلة كاملة كانت تستورد من مصر ولا يستطيع ارتدائها الا القـادرون .. وابو عـامة وجكسـا وسامي عـز الدين وعبـد الخـير صالح .. اولئك الذين حين تذكر اسماءهم انما يعني ذلك النادي الذي يلعبون له .. تخرج طلعت من الكليـة ليلعب للهلال تاركاً محمد كرار فيها والذي يسارع بأن يطلب من عبدالله رابح ، تبليغ طلعت فريد رسالة هامة مؤداها ان كرار كان يلعب في نفس الفريق الذي يلعب فيه طلعت لكنهما افترقا الان .. وذلك يعني ان عهد طلعت الذهبي قد ولى . فلن تستطيع قذائفه ان تلج شباك محمد كرار . ولهذا واشفاقاً عليه فهو ينصحه بالاعتزال وهو في عز مجده . وضحك طلعت ساخراً وطلب من عبد الله رابح ان يشكر محمد كرار على رسالته وان يبلغه بانه قد قرر ان يستمر في الملاعب . مع وعد بأنه سوف يحرز اصابة في مرمى محمد كرار تجعل منه اضحوكة للناس ويقوم المباراة الموعودة بين الهلال والكلية طلعت مع الهلال ومحمد كرار الكلية وبدأ ضربة البداية من قلب الهجوم الى طلعت الذي لم يضع ثانية واحدة وكان مشهوداً له بقوة الضربات وسرعتها فيرسلها من مكانه ذاك قوية داوية لتسكن شباك محمد كرار الذي لم يتوقع شيئاً مما حدث وكانت العادة عنده في بداية المباراة ان يتخذ مكانه متكئاً في وقفته على احد قائمي المرمى .

ومن آل كرار لعب كرة القدم باقتدار ثلاثة . محمد ومصطفى وابراهيم .. وبدرجة اقل بابكر .. اجتذب النادي الجديد اعداداً كبيرة من المعجبين وكان تأثيره المباشر على النيل .. وكان يلعب له في عصره الذهبي الى جانب الاخوة كـرار . هاشم ضيف الله .

الاستاذ بحنتوب الثانوية . . وجعفر نميري . الطالب بحنتوب الثانوية وموسى النيل وطه سليم وعبد الوهاب دقشم وميرغني متولي وابراهيم رشدي واصبح الاتحاد في المقدمة . . لا تكتسب المباريات الكبرى بين الاندية الثلاثة اهميتها الا اذا كان هو . . الاتحاد احد طرفيها . . واقتسم النيل والاتحاد جماهير منطقة السوق . . القسم الاول والبحيرية والنصيراب والمدنيين والعشير ودردق وجزيرة الفيل . . بينما استحوذ الاهلي على جماهير منطقة السكة الحديد ود ازرق وتشاء الصدف ان يكون معظم الحلاقين في المدينة مع النيل ومعظم الترزية مع الاتحاد ومعظم الجزارين مع الاهلي وكان البعض يردد عبارات نادي الحلاقين فيعني بذلك النيل ونادى الجزارين ويعني الاهلي . . ونادى الترزية فيعني الاتحاد . . والغريب في الامر ان اثنين من اشهر لاعبي الاتحاد . هما جعفر نميري وعبد الوهاب دقشم كانا من حي ود أزرق وهو احدى المناطق المقفولة للنادي الاهلي . . وكانت جماهير الترزية تحتفل بانتصاراتها بصورة يشوبها في معظم الاحيان شيء من الاستفزاز الذي لا يؤدي الا في حالات قليلة الى مشاجرات كروية . . وكانت اكثر الجماهير صخباً هي جماهير النادي الاهلي . وربما كان ذلك لانها ما اشترك ناديها في مباراة مع النيل الا وتوحد تشجيع جماهير النيل وجماهير الاتحاد ضد الاهلي . وما تبارى الاتحاد مع الاهلي الا وانضم الى جماهيره مشجعو النيل . . ولهذا حين يكون انتصارهم قائماً يكون انتصاراً مزدوجاً على ناديين كبيرين لا نادياً واحداً .

وكانت عادة المشجعين بعد نهاية المباريات ان يصبحوا اللاعبين الذين يسيرون على الاقدام من الملعب حتى النادي يهللون في حالة النصر مبوزين في حالة الهزيمة ما عدا حالة واحدة هي جعفر نميري . الذي ما ان تنتهي المباراة حتى يخلع الفانلة داخل الملعب

ويرتدي قميصه ثم يضعها . . الفانلة على كتفه . . ويتجه الى بيته في ودازرق . . وهناك يكون الصخب في أعلى مراتبه فإن الاهلي هزم الاتحاد . . وما ان يظهر جعفر نميري وهو على مشارف الحي . . حتى يهدأ كل ذلك الصخب وكان اليوم لم يشهد من قبل زمان قصير . هزيمة فريق يلعب له . . اسمه الاتحاد .

ونادى الاتحاد كان بالنسبة لنا . . الجديد الذي نبحث عنه لكن القيود الاسرية تكبلنا بأسوار النيل فان اباءنا هناك . . بعضهم ابطال في الدومينو فليس معقولاً في ذلك الزمان ان يكون ابـوك نيلاوي وتكون اهلاوي . . فكانت قلوبنا مع الاتحاد . . وسيوفنا مع النيل . . وظهرت بوادر التمرد على النيل حين انشأنا ابنا ثانياً له . . كان مع النيل الشاطىء . وكان من نجومه محمد سليم وكوبس . . وعبد الوهاب ابوشوك وادريس وصعد من بينهم قوس ليصبح النجم الكروي الاول في النيل . . الفريق الذي انشأناه اسمه الوادي . . واستطاع هذا الوادي في زمن قياس أن يهزم الشاطىء . . ويسعد لالحاق هزيمة مضمونة بالنيل . . فقد جاء وقت كان الشاطىء فيه أعني النيل . . وكانت عيون محمد كرار ترقب الذي يجري داخل النيل . . التمارين فأتاحها لنا محمد كرار في ميدانهم غرب سراي السيد عبد الرحمن وشرق جامع الحكومة . . وكان يشاركنا اللعب ويتيح لبعضنا ان تلح ضرباته شباك مرماه . واطيح بالوادي بعد العلاقة التي نشأت بينه ومحمد كرار . . فأنشانا فريقاً جديداً برئاسة الحاج يوسف ، وكان من الذين يلعبون له الطيب عبدالله رئيس نادي الهلال العاصمي الان . وكان اسم الفريق الفجر . . ولان المجتمع الكروي مجتمع رهيب . . فإن الذي يحدث في كواليسه لا يصدقه عقل . . كان محمد كرار قبل السكة حديد يعمل في البنك الاهلي المصري . . ولان نشاطه الرياضي اتعب منافسيه . . رفعت

فجأة عريضة من بعض كبار التجار المتعاملين مع البنك تشكو من ان حساباتها فقدت السرية واصبحت على كل لسان في السوق وذلك أمر غريب وجديد لم نعرفه في هذا البنك الا بعد ان التحق بالخدمة فيه محمد كرار . . وكان من الطبيعي ان يستغني البنك عن خدمات محمد كرار . .

وأسرة نادي الاتحاد كانت على غير عادات أسرة الاهلي والبنك . . فهي متفتحة جداً . . جاءت مرة ببوليس جالينوس رئيساً للنادي . . وكانت الوظائف الادارية فيه تسند في العادة لغير مواطني المدينة مما كان يؤخذ على النادي . . امثال ابراهيم شل ومحمد ناصر وغيرهم . . فالمدينة متعصبة لابنائها . . لكن النيل سرعان ما انتهج نفس السلوك حين فتح الابواب واسعة لسيد عمر العوض . . والدرديري الفيل . . ومحمد عمر الشريعة وغيرهم من افذاذ المهتمين بالرياضة عموماً وبكرة القدم خصوصاً . . ونتج ذلك بعد أن هيمن على مقاليد الامور في النادي شباب جديد . . الهادي احمد يوسف . . ابراهيم مصطفى شرف الدين يوسف محمد عبدالله الكارب . . سليمان احمد سليمان ايضاً لحق بهم الاهلي . بعد أن قاد العمل فيه محي الدين دياب ومحي الدين ويوسف عمر الحضري . . ومحجوب على جانقي ومحمد عبد القادر المفتي اما الحياة الاجتماعية الاخرى . . حياة الصفوة في نادي الخريجين . . وكان اسمه نادي الموظفين فانها شيء مختلف .

موظفون سودانيون أيام الانجليز

ونادى الموظفين كان عالماً قائماً بذاته . . أشهر شخصياته اسمه ساتي . . وعمله فراش النادي . . رجل صيني خجول . . لكنه كتلة من نشاط . . نظيف الثياب . . وثيابه دائماً بيضاء . . وتمتاز عمامته بشكل متفرد . . ليست هي بعمامة الانصار وعزبتها المعروفة . . وليست هي القلووز التي انتشرت في تلك الايام وليست هي شبيهة بعمامة رجل البوليس التي تبدو وكأنما لفتها ماكينة . . وليست هي . العامة العادية التي نراها اليوم . . لكنها تبدو وكأنها استوردت من انجلترا . . التي صنعت فيها . . وكان السودانيون عموماً المتعلم والجاهل . . يحفظون جملة باللغة الانجليزية لا يخطئون نطقها . هي جملة . (ميدان انجلاند) . دلالة على الجودة . . ودلالة على اتقان الصنعة . . وكان ساتي معروفاً لدى كل سكان ودمدني . . فهو احد أهم شخصياتها . . وسر أهميته نبع من رواد النادي المأثور . . ونواب المأمور والاطباء على قلتهم . . ونفر غير قليل من المهندسين . . في الري والاشغال والمساحة وبينهم حكمدار السجن . ويسمى هو ايضاً بمأمور السجن . . الى جانب ثلاثة من التجار الكبار في السوق . . شيخ العرب . . وامين الممرض وعبيد فضل وانضم اليهم بعد فترة عبدالله الترابي وسفين فرح الذي كان موظفاً في المساحة واشتغل بالاعمال الحرة ليصبح فيها بعد ملك الطواحين .

ساتي يلتقي يومياً بهؤلاء . . وقبلهم كان يلتقي بالدكتور ابراهيم انيس . . واسماعيل العتباني . . وعمران عيسى ومصطفى

الصاوي وأمين طه وحسن نجيله ومعنى محمد حسن ومحمد احمد المرضي وحماد توفيق . . واحمد خير . . وزيادة عثمان ارباب وعبدالله عبد الرحمن نقد الله الذي كان بيته صالوناً خاصاً لصفوة الصفوة في النادي . . فزياراته لنادي الموظفين قليلة . . فكان الناس يلجأون من وقت لآخر الى ساتي لقضاء بعض امورهم المعلقة في دواوين الحكومة . . ولم يخب ظنهم فيه . . فعلاقته بالدولة كلها علاقة متينة . .

وكانت المدينة مشغولة بحياتها الخاصة . . التي لا تربطها او هي الوشائح بنادي الموظفين فهو في نظرهم اسطورة يهابون حتى المشي من امامها . . ينظرون اليه نظرتهم للحي البريطاني . . حيث يقطن الانجليز . . وحيث يجتمعون في ميدان التنس الكبير يمارسون لعبتهم المفضلة وهو الميدان التابع (لودمدني كلوب) ويقع جنوبه يفصل بينهما الشارع المسفلت . . وكنا نذهب الى هناك يومياً جماعة من تلاميذ المدرسة الاميرية من يساعدهم الحظ يتم تعينهم لاعادة الكرة حين تفلت من الملعب فتذهب الى الشارع ومهمتنا هي اعادتها الى الملعب مرة ثانية حتى نهاية التمارين . . وذلك نظير شلن وهو مبلغ كبير لمن هم في مثل ظروفنا . . اما الذين يصلون متأخرين فإن نصيبهم هو المشي في الشارع لتقوية لغتهم الانجليزية بالتحدث الى الانجليز الذين لا يلعبون التنس وانما يمتطون صهوات جيادهم وزوجاتهم واحياناً اطفالهم . . وكانت الجمل التي نتبادلها معهم واحدة لا تتغير . . قود افترنون . . فنرد قود افترنون سير . . ويكون ردنا كوراليا وفي غاية الجدية والحزم . . وكان ذلك السلوك يسعدهم تنيراً . . فتارة يبدأ التحية (المفتش) وكلهم في نظرنا (مفتش) واخرى تجيبنا الست . . فيكون هذه المرة منتهياً (بمدم) بدلاً من سير وبنفس الكورالية . . وكنا سعداء بهذه الحركات . . ذلك أن

الاقتراب من انجليزي انما هو شجاعة في تلك الايام لا يتمتع بها الا صغار السن . وكان من اميز الشبان نشاطاً في النادي ، الخراساني واحمد المحجوب . . غير أن الناس كانت تأخذ على النادي ماسونيته . فهو أشبه ببلاط لويس السادس عشر ملىء بالدسائس الصغيرة ، كان يفاجأ احد الموظفين في احد الايام بمفتش المركز البريطاني يستدعيه ليسأله اين امضى ليلة أمس ، لانه لم يشاهد في النادي . . ويعيش صاحبنا بعد ذلك في حالة من الرعب مستمرة . . ويملأ نفسه الشكوك ضد جميع الاعضاء . . وتشاء الظروف ان يكون اكثر الناس مواظبة على الحضور هم الذين انشأوا الجمعية الادبية من داخله . . مغيرين بذلك مسار الحياة الثقافية والسياسية ليس في ودمدني وحدها وإنما في السودان كله . . كانوا ابراهيم واسماعيل العتباني وعبدالله عبد الرحمن نقد الله واحمد خير وحماد توفيق وحسن نجيله وميرغني عشريه وغيرهم . . ليكون بعد ذلك المهرجان الادبي ومن خلاله يعلن عن قيام مؤتمر الخريجين العام . . تلك الفكرة التي طرحها خضر حمد في مجلة الفجر التي كان يوقع مقالاته فيها باسم (طوبجي) فقد استنت كلية غردون مناسبة سنوية اقامة احتفال تودع فيه الخريجين وتستقبل الوافدين الجدد . . وكان مؤتمراً يحضره جميع خريجي الكلية . . من الموجودين بالعاصمة وممن اتاحت وتتيح لهم الظروف حضوره من الذين يعملون في اقاليم البلاد المختلفة . . نادي (طوبجي) بضرورة أن يكون لهذا التجمع السنوي هدفاً بأن يناقش قضايا الخريجين على اختلافها وأن يكون بمثابة مؤتمر للخريجين . . وعقب في العدد التالي من الفجر مؤيداً احمد خير مركزاً على مؤتمر حضره ومسترشداً بحزب المؤتمر الهندي بزعامة غاندي . . والى . . والخ بقية القصة التي نتركها لمن يعرفونها اكثر بكثير جداً مما نعرف .

وتتغير أحوال النادي بالنشاط الجديد .. فيهجر الاندية الرياضية عدد كبير من قادتها من الاداريين ليملأوا فناء نادي الموظفين الذي اصبح نادياً للخريجين .. فتتصارع القوى الحزبية على السيطرة عليه .. ويكون اخر الامر من نصيب الاشقاء باسم المؤتمر .. ولذلك قصة آخرى .

نعود الى النادي في عهوده الاولى .. كان من بين اشهر اعضائه وجميعهم من المعروفين على مستوى المدينة كلها لانهم موظفون كبار مأمور السجن مصطفى سعيد .. فهو عملاق الجسد .. يتحدث الى الناس في شيء من التعالي لهجته دائماً آمرة .. يمر بحصانه على السجناء حيث يعملون يتفقد ادائهم في حفر الجداول والمدينة تستعد لاستقبال الخريف .. وفي ردمها وهي تودعه .. وكان الناس يخشونه .. ويتجنبونه ، والذي لا يعرفه الناس عن مصطفى سعيد .. أمر في غاية الخطورة وفي غاية الغرابة معاً .. كانت سلطات الامن مشغولة بالبحث عن مصدر منشورات توزع باسم المؤتمر ودون تحديد للجنته المركزية او احدى لجانه القرعية .. وكانت توجه الى المزارعين .. والى الموظفين في اماكن عملهم الى العمال ولم ينجح البوليس في الكشف عن الجهة التي تصدرها .. ولا الذين يعدونها .. كتابة وطباعة وتوزيعاً .. ولا المكان او الامكنة التي يتم فيها كل ذلك .. واصل القصة ان المهندس مصطفى الهادي الذي كان يعمل في قسم الحشرات النباتية بالابحاث الزراعية .. كان سكرتيراً للجنة المؤتمر الفرعية في ودمدني التي كان يرأسها حماد توفيق .. وكان من ابرز اعضائها عمران عيسى ومفتش الصحة التجاني عامر .. ومن الذين يقومون بنشاط من خارجها مساعد مفتش الصحة النور محمد نور الهدى .. وكنت اعمل في قسم الحشرات النباتية مع المهندس مصطفى الهادي

﴿ تلميذاً ﴾ وكانت تربطني به .. وبعبد الله حامد البدوي زميله في العمل صلات حميمة .. وكان الثاني يشجعني على الكتابة الى الصحف .. وبدأت بمعرض للزهور بعثت بتحقيق حوله الى ﴿ الرأي العام ﴾ وسررت كثيراً وسعدت حين وجدته منشوراً بكامله .. وليست هذه هي القضية .. فالقضية هي منشورات المؤتمر .. كانت صلتي بهما وثيقة قامت على فهم وتفاهم وثقة .. وكان المهندس مصطفى الصاوي يكلفني بصياغة بعض المنشورات بعد ان يمدني بافكارها .. وكان هو يعد بعضها .. وكان عمران عيسى يعد بعضاً ثالثاً .. كنا بعد أن نفرغ من مرحلة الاعداد يطلب منا عمران عيسى ان نلتقي في منزل مصطفى سعيد مأمور السجن .. والبيت جزء من السجن .. كنا نلتقي هناك على الغداء في ضيافته وكان يتسلم أصول المنشورات ويدفع بها بدوره الى سجين يعمل على الآلة الكاتبة .. فهو موظف اقترف جريمة الاختلاس .. فكان يتولى طبعها ثم يدفع بها الى الرونيو .. لتجهز الالاف ثم يكون التوزيع بعد ذلك .. وفي اليوم التالي وفي اي يوم ، نلتقي في الشارع وفي غيره بمصطفى سعيد مأمور السجن .. فلا يكون بيننا حتى السلام .. وفكرة طبع المنشورات في السجن هي من وحي مأمور السجن نفسه .. ذلك انه المكان الوحيد الذي يستحيل ان يخطر على بال رجال الامن الاشتباه فيه .. بل ان مصطفى سعيد نفسه كان آخر من يتهم بالمشاركة في عمل كذلك العمل . ومن الشخصيات ذات الشهرة في النادي والمدينة المساح السابق . وملك الطواحين سيفين فرح .

أبو الهول المتحرك

وملك الطواحين شخصية غامضة .. حياته اسطورة وسلوكه لغز .. علاقاته بالناس محدودة جداً .. فاصدقاؤه في نادي الموظفين هم من يصادفهم في لعبة الشطرنج .. التي لا يمارس في النادي هواية غيرها .. حين يدخل النادي لا يبادر بالسلام .. واذا كانت المبادرة من احد الاعضاء فهو لا يرد .. عليها .. اعتاد يومياً أن يصرف جزءاً من وقته في مدخل النادي متأملاً لافتة صغيرة سوداء كتب عليها بحروف بيضاء جميلة للاعضاء فقط ولو رآه صبي من تلاميذ الكتاب لاصيب بالدهشة من افندي طويل عريض يلبس البدلة الكاملة ويعاني في وقفته تلك كل تلك المعاناة محاولاً قراءة تلك اللافتة .. وكل يوم ..

اسمه سيفين فرح .. كان موظفاً بمصلحة المساحة .. وترك الخدمة ليتفرغ للاعمال الحرة .. في زمن كانت وظيفة الحكومة هي طموح كل المواطنين بلا استثناء .. بدأ بتجارة الحبوب في الغرب .. واستقر لفترة في تندلتي او ام روابه بعصر الزيت ويتاجر فيه .. ثم جاء الى ودمدني واستقر فيها مالكاً لطاحونة (ام سويقة) التي اشتراها .. ثم انشأ من بعدها طاحونتين غرب السوق الجديد لا تبعد احداهما عن الاخرى باكثر من ثلاثمائة متراً .. ثم اشترى طاحونة رابعة يفصل بينها والسكة الحديد الشارع .. وهي تساوي من حيث الحجم ما سبقها من طواحين مجتمعة .. وتزيد عليها بانها تصنع الثلج .. وحقق عملياً امنية طالب مدرسة الشرطة تورين

الذي فصل منها ثم اعيد اليها بشرط انه عندما يتم تخديمه فليس هناك من التزام ان تستخدمه الدولة ضابطاً فيها فرد على براميل بجملته المشهورة وهو تريدني ان افتح (ضبطيه) خاصة بي !! ذلك ان سيفين فرح اشترى في قلب السوق مركزاً هاماً للخضر . . كان قصراً لشيخ السوق . . حسن الصاغ الذي خلف يوسف على شدو . . ثم من بعده عبدالله على شدو رئيس نادي النيل الرياضي . . وكان ذلك المقر يعرف بأسم التمنة . . اشتراه سيفين أو استأجره من الحكومة . . وجعل منه مكتباً دائماً يدير منه اعماله . .

كان يبدأ عمله في الصباح الباكر بالخروج من منزله . . فيطوف على الطواحين متنقلاً بينها وعلى بعد المسافات ، مشياً على الاقدام . . وقد كان قصير القامة . . ضخم الجسم يرتدي البدلة الكاملة وهي من التيل الابيض صيفاً ومن الكاكي شتاء . . ويضع فوق رأسه البرنيطه لتقيه حرارة الشمس . . لم يدخل بيته احد من الناس ابداً . ولم يزر هو اياً من الناس في بيته ولاي سبب من الاسباب ابداً . . فهو محدود العلاقات . . وتعامله مع موظفيه في الطواحين لا يخلو من شذوذ . . فهو حين يصل طاحونة ما من طواحينه . . يجلس على المكتب بينما يقف امامه كاتبه المسئول عن الميزان والتحصيل . . وعلى المكتب توجد قاعدة خشبية تقف عليها وملتصقة بها مسلة يصل طولها الى عشر بوصات . . ثم يشرع في الكتابة الى الموظف المسئول . . الذي يقرأ ما كتب سيفين فرح . . فيتناول هو القلم يرد عليه . . ثم تودع تلك المكاتبات امانة في عنق المسلة . . فهو لا يخاطب احداً . . او يتحدث اليه حتى في العمل . . وكان يتناول غداءه في مطعم لا يدخله الا القادرون من بين الاجانب . . اسمه (يني ديللس) ومنه يتجه سيراً على الاقدام

الى منزله .. ويشاهده الناس مساء في جنينة كعكاتي .. التي حفظه جرسوناتها صم .. فعند جلوسه في مكانه الذي لا يتغير .. تصله اربعة شاي .. واربعة قهوة .. واربعة بيبسي كولا .. ومع كل طلب من الطلبات البالغ عددها دستة .. كوب ماء مثلج فيشرع في احتساء كوب الماء الاول .. ثم يشرب الشاي المصاحب له ثم يحتسي الكوب الثاني المثلج بين الماء يعقبه الشاي .

وهكذا الى ان ينتهي من المشروبات كلها .. ليغادر المكان الى نادي الموظفين يلعب الشطرنج .. ثم الى السينما اذا كان الفيلم امريكيا ترجمة العربية على الشريط .. فتلك كانت احدى هواياته ليس بغرض مشاهدة الفيلم ولكن الهدف ان يطابق بين الحوار بلغته الانجليزية مع الترجمة المصاحبة له والى اي مدى هي قريبة من الحقيقة والى اي حد هي بعيدة عنها ..

وبمرور السنين .. استأجر حنطوراً ينقله الى طواحينه .. والى المطعم ثم الى البيت .. وحدث أن اجتمع اصحاب الطواحين وقرروا أن يرفعوا اسعار الطحين .. لكنه اعترض فاتفقت كلمتهم أن ينزلوا بالسعر الى ادنى حد وهم عصبة وهو شخص واحد الى ان ينصاع لرغبتهم .. لكنه ركب رأسه فاعلن عن اسعار للطحين اقرب الى المجانية .. اضاف اليها هدايا للاطفال الذين يقصدونه محلاته .. مع تقديم بعض المال لهم .. وانفض الناس من طواحين المنافسين واصبحت طواحينه هي الوحيدة التي تعمل الشيء الذي تدخلت بعده السلطة لتوقف تلك الحرب وتوحد السعر الذي يتعامل بمقتضاه الجميع ..

وكانت الحكومة تختار لفيفاً من اصحاب العمل والتجار سنوياً للمرور على المستثمرين والتجار لتقديرات الضريبة السنوية ..

وتصادف أن كان في عضوية اللجنة عثمان ابو العلاء . . وآل ابو العلاء يملكون كبرى الطواحين التي يجمع بينها ومعصرة للزيت ومخازن ضخمة حوش واحد بود ازرق . .

في هذه الفترة رفعت الضريبة على تلك الطواحين بصورة اعتبرها غير معقولة ولا مقبولة . . وحمل المسئولية لآل ابو العلاء . . وفي ذات ليل عاصف . . ضبطه البوليس يحاول حرق تلك المستعمرة فالقى عليه القبض . . وحوكم بسنتين سجناً وغرامة خمسين الف جنيه وبعدم الدفع ثلاث سنوات آخرى . . وامضى فترة السجن الاولى . . واشترى حريته عن السنوات الثلاث الأخرى بدفعه الخمسين الف جنيه التي تساوي هذه الايام مليوناً من الجنيهات دون شك . .

وخلال وجوده في السجن . . وقع الاضراب الشهير الذي شارك فيه رجال البوليس عام ١٩٥٠ . . وشارك في الاضراب عمال الطواحين فاصدر سيفين فرح قراراً يتفق واسلوبه في الحياة . . اغلق بموجبه كل الطواحين ومصنع الثلج وفصل كل العاملين . . ولم يبق الا على شخصين اثنين . . سيد لطفي الخانجي . . الذي يتولى الشئون الادارية والمالية وبشير حاكم مسئول الشئون الفنية . . وخرج سيفين من سجنه بعد أن امضى العقوبة . . ولم يصله احد مهنئاً بسلامة الخروج من السجن . . واستأنف اعماله بعاملين جدد بعد أن قام بالصيانة المطلوبة . . والتجديد في الالوان .

وجلست اليه الومه على قراره القاسي بفصل العاملين في محلاته . . وكانت تربطني به صلة نشأت في شركة النور التي كنت بها . . وكان هو احد زبائنها . . الحريص على سداد فواتيره بنفسه . . وكنت احسن استقباله واجلسه على كرسي حتى اكمل له

اجراءات السداد واستلام الايصال . . واطلب له شاياً واحد ومعه كوب الماء المثلج . . ثم تطورت العلاقة لتصبح صداقة من نوع فريد . . كنت ازوره يومياً في طاحونته ومصنع ثلجه القريب من السكة الحديد ونتحدث في كل القضايا . . ونختلق الموضوعات . . واشهد بأنه كان رجلاً موسوعة يجيد الحديث في كل شيء . . قال : وانا في السجن . . اقدمت على أمر لم يقدم عليه قبلي شذاذ امريكا . . فقد كتبت وصية في حالة وفاتي أن يرث المحل الذي املكه الذين يعملون فيه لكنهم غدروا بي وانا في محنة السجن . . وذلك جحود لا اغفره . .

وسيفين فرح . . رحل يوم نزل البنسلين المعجزة الاولى لاول مرة في اسواق اوروبا . وطلب لعلاجه بالطائرة . . ولكن تشاء ارادة السماء ان يرحل الى العالم الاخر . . مصاباً باحتقان في الحلق . . سبب له التهاب اللوزات . . في اللحظات التي وصلت فيها السيارة حاملة الدواء المعجزة . . وكان أسم سيفين فرح في المدينة مكتوباً على واجهات طواحينه بالخط العريض . . لمسافة خمسة امتار وعلى سطرين . . السطر الاول يحمل كلمة طاحونة وتحته سيفين فرح . . في السطر الثاني . . فتكون الجملة طاحونة سيفين . . هي اعلام ثلاثة . . اثنان يمثلان الحكم الثنائي . . البريطاني والمصري . . ويرتفعان بصفة دائمة على ساريتهما فوق مبنى المديرية . . اما العلم الثالث فهو عبارة طاحونة سيفين فرح . . التي تقابلك في اركان مدينة ودمدني الاربعة . . وعاصمة الاقليم الاوسط مليئة بالشخصيات التي لا تنسى . . لانها ظواهر اكثر منها بشر . .

رواد ونوابغ في حقل التعليم . .

ودمدني تزخر بالخلاوي . . اشهرها خلوتان . . خلوة الفكي قدوره ومقرها جامع البوشي . . وخلوة الجامع . . مقـرها جـامع الحكومة . . وشيخها اسمه الفكي (امحمد) هكذا كان ينطق . . وكان بالمدينة (كتابان) كتاب البندر . . وكتاب النهر . . ومدرسة متوسطة واحدة هي مدرسة وادمدني الاميرية . . وكان السودان كله يتساوى فيه عدد المدارس المتوسطة بعدد مديرياته التسع . . مدرسة لكل مديرية . . ومدرسة ثانوية واحدة هي كلية غردون التذكارية . . كان ناظر البندر هو الشيخ عبد الغفار . . وناظر النهر هو شوقي الاسد . . وكان التنافس بين المدرستين تنافساً رهيبـاً بالمستـويات متقاربة من حيث استعداد التلاميذ الطبيعي للتلقي . . ذلك أن التلميذ لا يدخل الكتاب لان عمره سبع سنوات كما يحدث اليوم ، لكنه يدخل المدرسة منافساً في امتحان يعقد لجميع القـادمين من الخلاوي ، وما اكثرهم ليتم قبول ١١٠ تلميذاً للمدرستين . . وكان الامتحان والتصحيح واعلان النتيجة يتم خلال اسبوع واحد . . وتقوم مادة الامتحان على العربي والحساب والدين . . تكتب الاسئلة على السبورة ويجيب الممتحنون على الواح الاردواز بعد أن يكتب كل ممتحن اسمه وتاريخ اليوم . . وقبل ذلك (بسم الله الرحمن الرحيم) وتصادف أن كان صاحبنا هو الوحيد بين الجالسين لذلك الامتحان الذي لم يجيء من الخلوة . . وانما جاء من الارسالية الامريكية . . وكان يجلس الى جواره احد ابناء جيرته واتفق معه ان يمكنه من

الاطلاع على اجابات الامتحان التي يكتبها في لوحه . . ونفذ الاتفاق بدقة متناهية . . حتى (الاسم) اسم الممتحن في اللوحين كان واحداً .. وقدما للمحاكمة . . فقضت اللجنة بطردهما معاً . . وحرمانهما من دخول أي امتحان قادم . . وجاءت براءته بعد نصف عام كامل بتدخل شخصي من صالح بحيري . . الذي افتى بأن تكرار نفس الاسم في اللوحين هو دليل البراءة . . وهي بديهية لا اعرف كيف فات على اللجنة . . وتقرر قبوله استثناء حتى اذا ما اثبت اخر العام قدرته على مواصلة الدرس . . نقل الى السنة الثانية . . والا فانه سوف (يبيت) في السنة الاولى . . وكان اخوه في السنة الثانية . . احد ابرز تلاميذ المدرسة . . في الدراسة وفي النشاط المدرسي . . الى جانب تفوقه في الترتيب بالاولية لم ينافسه فيه احد . . وسأله اخوه قبيل امتحان النقل عن موقفه . . واستعداده لذلك الامتحان وتوقعاته حول نتيجته . . فقال في ثقة ان الشيخ خوجلي البشير اخطرني باني ربما جئت اول الدفعة . . والواقع ان الشيخ خوجلي لم يقل كلمة مما نسب اليه . . وجاء الامتحان . . وظهرت نتيجته . وكان ترتيب صاحبنا ليس بعيداً عن توقعاته . فقد كان ثاني الفصل اذا ما قرئت القائمة على طريقة العد التنازلي . .

لكنه في السنة الثانية اخذ في التقدم حتى اذا ما انتهى العام الدراسي . . ونقل الى السنة الثالثة . . كان احد العشرة الاوائل . . والواقع ان المستويات كلها متقاربة . . فان ماسك الدفة اليوم ربما كان الاول في العام المقبل . . ولعل الذين يتابعون البرنامج الاذاعي اولاد دفعه . . استمعوا للدكتور حسبو سليمان وهو يتحدث عن دفعته في الاميرية في ام درمان وعدد تلاميذها ٢٧ تلميذاً احتل مركز الاولية الجميع سبعة وعشرين مرة . . ذلك أن الاول قد يكون

مشتركاً لدستة كاملة من التلاميذ .. والتصفية تبدأ من الخلوة .. ثم يجلس تلاميذ المدارس الاولية في المديرية كلها متنافسين على اربعين فرصة في المدرسة المتوسطة الواحدة وفي نهاية المرحلة تعقد مدارس السودان التسع امتحانات محلية لافراز العشرة الاوائل في كل مدرسة ليتم تجميعهم التسعين في الكلية في الخرطوم ، يجلسون لامتحان جديد ليتم قبول العشرة الاوائل من بينهم لمعهد المعلمين ببخت الرضا .. أمثال عبد اللطيف عبد الرحمن الوزير الاقليمي بالشمالي .. وكانت آخر دفعة سارت على هذا النظام . تلك التي ينتمي اليها الفكى عبد الرحمن .

وكان التلميذ عند دخوله المدرسة المتوسطة ، ضمن مستقبله .. فالمجتمع من حوله يعامله باحترام شديد وخاصة اذا كان في الفصول المتقدمة .. السنتين الثالثة والرابعة .. ذلك أن مديري المصالح يلجأون الى هذه المدارس يستعينون بالدارسين فيها لسد النقص في الوظائف الحكومية التي لا تحتاج لاكثر من محصلتهم التعليمية تلك .. اما اذا كان طالباً في الكلية فانه يكون حلم الفتيات جميعاً .. وصاحب النعمة المحسود .. وكان من المحسودين في ودمدني .. بدى على بدوى الشهير ببدوى بطاريه .. كانت هوايته الصفارة يجيد نفخها مطوعاً كل الالحان .. وكان اشهر النافخين عليها في الكشافة في المدرسة المتوسطة .. ثم في الكلية .. وكان شغوفاً بالادب .. حتى أن اصدقاءه وفي مقدمتهم قسم الله الامين اطلقوا عليه اسم (ابو الادب) .. وكان من المحسودين .. عثمان ابو بكر رجب وهو شخصية لابد من الوقوف عندها قليلاً .. كانت الوظيفة الحكومية هي حلم العباد .. وكانت وظيفة سامية جداً عندما يكون شاغلها خريجاً لكلية غردون التذكارية .. او المدارس العليا فيما بعد .. ثم كلية الخرطوم الجامعية .. الى

اصبحت جامعة الخرطوم اليوم .. وعثمان ابو بكر ، شاب فنان يجيد فن الرسم .. الطبيعة والناس ووصل الى قمة التعليم المتاح .. وهو الكلية وحين تخرج منها .. ذهبت طوابير دفعته الى مكاتب الحكومة واتجه هو الى تصليح السيارات .. ميكانيكياً ويبدأ من الصفر .. واستنكر المجتمع ذلك ووصفه البعض بالجنون .. وعثمان ابو بكر كان سابقاً لعصره دون شك بنصف قرن من الزمان .. بالعمل اليدوي كان محتقراً في ذلك الوقت .. وعثمان ابو بكر احد الرواد الذين رفعوا من شأنه بالعقلية المتفتحة التي كانت ترى مالا يراه الاخرون .

ومن المحسودين حسن دفع الله .. وفهمي بدوي ومحمد احمد سليمان .. ومحمد عثمان النور .. وحيدر وفضل عبيد والامين محمد الامين السنهوري .. ومن بعدهم ، جاء محمود محمد علي .. وعبد الرحيم محمود .. وعصمت فهمي .. والقائمة طويلة .. وهي اجيال عايشت بشير فراش المدرسة الاميرية المتوسطة .. وسعد اليماني صاحب الكنتين وبائع السندوتشات الذي هو على خلاف مستمر مع زكريا .. فزكريا هو المؤجر الرسمي المتعاقد مع المدرسة .. وسعد اليماني .. يبيع لكتاب النهر وللمدرسة الاميرية (بالبراشوت) وهو تعبير يعني في تلك الايام عدم الشرعية ..

كان ناظر المدرسة الاميرية موسى ابراهيم .. اعتاد أن يتسلم في نهاية كل عام نصيبه أو حصته من محصول البلح الذي يصله من أرقو .. كان ذلك البلح يشحن رأساً من دنقلا الى مدرسة ودمدني الاميرية .. ذلك أن موسى ابراهيم اعتاد أن يوزعه في صبر يحسد عليه ، علي جميع ابنائه التلاميذ بمعدل ١١ تمرة يومياً لكل تلميذ .. وكان يرى من وراء ذلك أن يطعم بعض فقراء تلاميذ المدرسة وجبة تمر لان امكانات ذويهم لا تسمح بمنحهم مالا يشترون به وجبة

الافطار الذي يبيعه زكريا . . ولما كان زكريا يبيع الطعام لتلاميذ المدرسة بموجب ترخيص استحقه من خلال عطاء طرح على الجميع ، فأنه كان كثير الشجار مع سعد اليماني الذي قلنا أنه استقطب عدداً كبيراً من التلاميذ يشترون فطورهم من دكانه . . وحينما اشتدت حملات زكريا ضد سعد اليماني . . اوعز سعد الى احد التلاميذ أن يضع خنفساء في طعامه ويجمع حوله التلاميذ ثم يتقدمون بالشكوى لناظر المدرسة ، وقد كان . . واستدعى موسى ابراهيم . . المتعهد زكريا والساندوتش في كفه وقال : ايه ده يا زكريا . . خنفسه في الاكل . . انت عايز تقتل اولادي . . انت من اليوم مالكش مكان في المدرسة . . لم حاجتك وعزل . . وكان يقال عن زكريا أنه في حالة من الغيبوبة دائمة . . ساخر وابن نكتة . . فتراجع خطوتين الى الخلف . . وقال لناظر المدرسة . . سمعاً وطاعة . . يا سيدنا عيسى . .

وفي الجانب الاخر . . كانت المدرسة الاهلية التي توسعت فاصبحت مدرستين واحدة ناظرها مصطفى ابو شرف والثانية ناظرها صالح مصطفى الطاهر . . واستطاع ابو شرف في فترة وجيزة أن يجتذب جميع التلاميذ في مختلف مدارسهم . . ومراحلهم التعليمية فهو شديد في تعامله مع تلاميذه من ناحية تربوية . . وكنا نترك له الطريق الذي يسير فيه على الرغم من اننا تلاميذ الاميرية . . السلوك عنده اولاً . . اما التلقين فأن امره هين . . ولهذا كان يستخدم العصا . . وكان يصرخ . . بل الواقع يزأر حين تقع عيناه على الخطأ . . ومع القسوة التي كنا نرميه بها . . فقد كان الرجل اباً عظيمًا . . ومعلمًا مسئولاً . . ومربياً يحتذى . . كان يشتري الجاز الابيض من جيبه الخاص يوزعه بالزجاجات على التلاميذ يستعينون به على الاستذكار . . وكان يتابع تلاميذه حتى بعد ان يغادروا

المدرسة الاهلية الى المرحلة الثانوية .. واذكر أن احمد عبد الحليم كان يتزعم الطلاب في حنتوب .. وكان ابوه رئيساً لنقابة الجنائنية .. وأخوه رئيساً لنقابة الممرضين .. واخته زينب الاولى على بنات المديرية كلها .. وكان بيتهم محاطاً بقباب مدني السني .. وسعد ابي .. وابو شبكه .. وابو قنايه .. وفصل احمد عبد الحليم من حنتوب .. واجتمع مجلس المدرسة الاهلية وكان اسمه لجنة المدرسة الاهلية التي يرأسها مفتش التعليم البريطاني .. وناقشت قضية التلميذ احمد عبد الحليم .. وثبت انه لا رجعة في قرار حنتوب .. ارادت اللجنة أن تبعث به الى الاهلية الثانوية بام درمان .. على نفقتها .. فأعترض المفتش وانتهى الاجتماع .. لينعقد بعد ساعات في منزل احمد الحضري رئيس اللجنة الذي يستدعي التلميذ احمد عبد الحليم في اليوم الثاني .. ويطلب منه مقابلة سعد ابو العلاء .. الذي يسلمه بأسم اللجنة خمسة وعشرين جنيها والواقع هي من آل ابو العلا ٢١ جنيها مصاريف المدرسة واربعة جنيهات مصاريف شخصية .. ويدفع اليه احمد الحضري بجلبابين وشورتين .. وحين يجيء سفره الى مصر يسلمه محي الدين الحضري المدرس بالاهلية قماش بدلة صوف وأجر تفصيلها .. وهو في قطار السكة الحديد .. يدفع اليه من شباك قمرة الثالثة ، استاذه سليمان احمد سليمان بساعته ..

ذلك جيل غريب .. استطاع بتضامنه .. وبوحدته وبعلاقاته الاجتماعية الحميمة .. أن يبني قاعدة صلبة قام عليها مستقبل السودان .. والحديث عن هؤلاء واولئك .. مستمر ومتصل .. والنماذج كثيرة .. بينهم من يسابق الحصان .. ومن منعته السلطة من ضرب الآخرين بأن كتبت على طريقة الوشم في سواعدهم

(ممنوع الملاكمة) ومنهم من قيل انه تزوج من (جنيه) الانثى من الجن . . خشية أن تقرأ جنيه بمعنى العملة . .

الفتى الغارق في الفقر !

ولم يكن أحمد عبدالحليم خاملاً . . كان طالباً نابغة ذكياً . . وكان طاقة جبارة . . وكان مسئولاً . . انظاره دائمًا متجهة الى الغد وإن لم تغفل الحاضر . . عندما كان تلميذاً بالكتاب . . والعطلة الصيفية مـرتبطة في الجـزيرة . . أو مـديريـة النيـل الازرق كلهـا بمـوسم الزراعة . . كان يعمل في زراعة الذرة . . وكان يدخر مما يجمع من مال ليس لنفسه وانما ليعين اسرته كذلك . . فما من عيد اطل الا وكان الجلباب الجديد الذي يرتديه الاب هدية من ابنـه التلميذ المزارع أحمد . . وفي المرحلة الدراسية تلك . . عندما ينتهي موسم الزراعة . . كان يشتغل بائعاً للتـراب . . وللرمال . . كـان يمشي خلف الحمار المحمل بالقليبة المليئة بالتراب والرمل عشرات المرات في اليوم . . وكان يركب الحمار في اوبته بعد أن يفرغ بضاعتـه والقليبة سرجه . . عشرات المرات ايضاً يستمر اثر ذلك حتى اليوم في جسده وكأنه فعل السكاكين لاسعف النخيل المضفور . . والواقع ان ذلك التاريخ لا ينفرد به احمد عبد الحليم وحده . . شاركه فيه جميع ابناء جيله من ابناء السودانيين . . فمن نعم الله على هذا الشعب . . انـه بسليقته وفـطرته السليمـة . . وظروفـه لم يعـرف الاستقراطية فالاستقراطية عملة أجنبية تجدها عند الاجانب الذين يعيشـون معه في بـلاده . . من ارمن واغاريق وشـوام . . أما السودانيون فانهم في غالبيتهم فقـراء يحمدون الله من التجـار . . والموظفين . . حالهم مستور لا اكثر ولا اقل . . ولهذا فإن جيل احمد

عبد الحليم . . بما فيهم ابناء التجار وابناء الموظفين . . كانوا يستثمرون العطلات الصيفية المدرسية . . وكنا نسميها (بطالة الخريف) في العمل الذي يأتي بالربح . . كان بعضنا يستأجر اللواري ويسافر الى سنار والى كوستي ويعود بشحنات البطيخ والشمام . . واشجار النيم التي غطت شوارع المدينة كانت هي محلات البيع . . والبعض الآخر كا في الصبح تلميذاً وبعد الظهر نجاراً . . طوال العام . . وبعض ثالث كان يشارك والده صناعة المراكيب . . الالتصاق الدائم بالقرمة . . وكان أشهر صانعي المراكيب . . وبخاصة النسائية . . النوساني . . وكان من المألوف جداً ، فهو جزء من حياة ودمدني أن تزدهر عملية بيع الخضر واللحوم ساعة المغيب حيث يكون الكادحون قد فرغوا من عملهم . . وباعوا واشتروا . . ثم يتجهون (بالملاح) للبيت . . وكانت فئة آخرى . . تعمل مع المقاولين . . وأشهرهم في تلك الايام عبد القادر اسماعيل علي . . وسليمان الدمياطي وسبقهم محمد عبد القادر والد الاستاذ يحي محمد عبد القادر . . الذي امضي - يحي - قرابة العام في ودمدني . . ثم جاء مصطفى عمر ابو عيسى . . وكانت كلمة مقاول تنسب لاولئك الذين يبنون العمارات او الذين يقومون بتنفيذ التعهدات . . فالعم بانقا متعهد مشرع حنتوب مقاول . . والخواجة اليكس متعهد جوالات القطن والبذرة في مارنجان مقاول . . وكان عدد كبير من التلاميذ يعملون في خياطة تلك الجوالات . . . بينهم التلميذ جعفر محمد نميري . . الكل يعمل . . فالوقت من ذهب . . والوقت كالسيف . . إن لم تقطعه قطعك . . وربما كان ذلك الجو الذي صنعه الأباء . . وشب عليه الأبناء . . هو الذي اقنع فناناً كعثمان أبو بكر رجب الشوربجي أن يترك الوظيفة ليتجه الى الصنعة .

ومن افكار الدكتور عون الشريف قاسم وهو ينقب في الديانات .. مقارنة عقدها بين الاسلام والمسيحية .. قال .. ان المسيحية جاءت الى الناس وقد سبقتها حضارة عاتية ... هي الحضارة الرومانية .. كانت لها دولتها .. لها مجلس شيوخها وبرلمانها وامبراطورها وجيوشها .. كان لها نظامها الاداري في روما وفي الأقاليم .. وكانت لها قوانينها .. مع ازدهار كبير في مجالات الثقافة المختلفة .. ولهذا لم يكن امامها الا ان تكون روحانية .. بعكس الاسلام الذي انبثق ثورة وسط جاهلية رهيبة .. لينتشر من بعد فيضيء العالم كله .. وفي موازنة بين الدولة والروحانية .. والذي ينظر الى ايطاليا وشعبها اليوم .. (راشيا) التي اصبحت رومانيا الان .. يجد ان المسيحية (الروحية) التي عناها د. عون الشريف .. حولت ذلك الشعب المقاتل في شراسة الى شعب (فنان) قدم للبشرية والانسانية بعد المسيحية .. روفائيل ومايكل انجلو ليوناردو دافنشي .. ترى ماذا صنعت الميكانيكا بالفنان عثمان ابو بكر الان .. هل حولته الى مواطن روماني على ايام الامبراطورية .. ام تراه ما زال منتسبا لروما ما بعد المسيحية .. روما روفائيل ومايكل انجلو ..

ومن الشخصيات التي لا تنس .. اسماعيل عجمي .. وكان وكيلاً لعقارات الفضلي .. والد يحي ومحمود الفضلي .. يتعهدها بالصيانة .. قبل الخريف .. وبمطاردة الاطفال الذين يسرحون ويمرحون فوق السقوف .. لا اذكر اني رأيته يلبس شيئا جديدا .. مركوبه مصنوع من التراب .. وطاقيته غارقة كلها في العرق .. وتراكم فوقها عرق السنين .. ووظيفتها لا تقف عند كونهاغطاء للرأس .. وانما هي ايضا مخزن للقامشة .. القمشة هي توباكو يلف على ورق سجاير يباع في شكل دفاتر .. ولعلها البضاعة الوحيدة

التي كانت تستورد من امريكا في ذلك الوقت . . فإن غلاف دفتر ورق اللف مرسوم عليه العلم الامريكي . . فقامشة عم اسماعيل مخزونة تحت طاقيته . . والسيجارة كانت جزءاً من جسده . . كأنما ولد في فمه سيجارة . . فهي لا تفارقه ابدا . . وتحول شاربه الى لون النيكوتين . . فهو شارب لا يحلق . . وكذلك لحيته . . منذ ان نبتت شعراتها الاولى تركت تنموعلى الطبيعة . . مثل الغابات . . كانت كثة بمعنى الكلمة . . ثيابه هي الاخرى مصيدة دائمة لما يفرزه جسده من عرق .. لا تترك حبة عرق تفلت . . وحول عنقه ويديه المعروقتين ترى خيوط التراب كأنما هي خرائط من رسم مساح ماهر . . يحمل في يده (حنكول) دائما . . وهو عصا يتوكأ عليها . . ويهش بها علينا نحن الذين (نطلع رأس البيت) . . وهو شخص منفعل على الدوام . . لا يهدأ . . وسبحان الذي جمع النقيضين في اسماعيل عجمي . . فهو مع توتر اعصابه المتواصل . . صبور يجمع تجارته طوال العام بلا كلل او ملل . . وتجارته هي مخلفات الحمير . . كان يخرج من بيته في الصباح الباكر ويجوب الطرق كلها . . وحيثما وجد مخلفات حمار انحنى عليها في رفق وجمعها في فرخ ورق مقوى . . وحينما تتجمع منها كمية لا تقبل زيادة تزعجه في حملها حتى تصل سليمة . . يتجه بها الى بيته . . ومدخل زقاق طوله يزيد على العشرين متراً . . فصله بحزام من الطوب جعل جانبا منه مخزنا لمخلفات الحمير . . والجانب الاخر طريقا وممرا للسكان . .وحين يقبل الخريف . . يكون جانب المخلفات قد امتلأ . . حتى فاض . . وتكون الزبالة جاهزة لمن يريد ان يؤمن منزله عواقب الامطار . . ومن الطريف ان اسماعيل عجمي . . الذي يعرف عنه سكان القسم الاول كلها عصبيته . . اخذ بعضهم يستفزه من وقت لاخر قيل ان احد مشاغبيه التقى به في الطريق

وصاح به .. الحق ياعم اسماعيل .. لو شفت حمار يوسف على شدو بعر ليك في زبالتك .. فما كان منه الا ان يرغي ويزيد .. ويهدد ويتوعد .. اذ كيف يجرؤ يوسف على شدو ان يترك حماره يفعل بزبالته ما فعل .. الا انه شخصية هامة غنية وهو رجل فقير .. لا بد من مقاضاته ورفع الامر الى الحكومة .. وتقدم بشكوى الى البوليس شد شيخ السوق يوسف على شدو لارتكابه تلك المخالفة الخطيرة ..

وكان اسماعيل عجمي .. في شبابه وفي حياة الفضلي .. يرتدي البدلة الكاملة .. وعندما يكون مشغولا بعجن المونة او اي عمل متصل بالبناء .. ويطرق طارق الباب .. كان يرد عليه ان ينتظر قليلا .. فيترك ما بيده ويغسل يديه وقدميه من الطين ثم يرتدي ملابسه تلك كاملة حتى الجراب والحذاء والطارق لا يزال في وقفته تلك .. وفي شيخوخته التي نحن بصددها الآن .. لم يبقى له من لبس الشباب غير الجاكتة التي يرتديها فوق الجلابية وكان له ابن اسمه ميرغنى .. يعمل في الابحاث الزراعية .. وكان اسمها التجارب .. كان نظيفا متأنقا .. يمكث في الشارع أكثر مما يمضى في العمل .. او يبقى في البيت .. يحمل في يده بعضا من الصحف الانجليزية .. التي كان يشتريها من (سودان بوكشوب) وهو لا يعرف كلمة انجليزية واحدة .. وكان يوهم بأنه يطالعها .. صرف جل وقته في قرض الشعر الذي لم يسمع به احد .. اذ كانت امنيته ان يكون شاعرا .. ولكن كيف .. وذات مرة اختار ما رأى انها اجود شعره وقدمها للعبادى يسأله رأيه .. وجاء رد العبادى بالشعر .. وهو رد لو نشر .. يعاقب عليه القانون .. والعبادى برده ذلك .. أوقف لسان ميرغنى الذي اطلقه لسنوات ضد الامى .. عشرية .. وعلى المساح الذين لم يسمحوا له بارتياد نادي

الشعر الغنائي في تلك الحقبة ناهيك عن العضوية فيه . .

وفي الجانب الاخر . . كان الشيخ محمد الامين . . رجلا وقورا . . يحترمه الناس كل الناس . . فهو امام جامع الحكومة . . او الجامع الكبير . . واحترام الناس له ليس لانه امام الجامع وحده . . وانما لانه حج الى بيت الله سبع مرات . . وبعضنا كان يقول تسع حجات . . كان يرتدي من الملابس . . صورة طبق الاصل لما نراه من صور للسيدين على المرغنى وعبد الرحمن المهدي في صناديق الكرتون المعباة بالعطر المسمى باسم كل من السيدين والذي تنتجه مصانع الشبراويش بمصر . . وللسيدين الجليلين مكانة خاصة عند السودانيين ومهابة خاصة ايضا . . والشيخ محمد الامين هو والد العمدة محمد سعيد الذي خلف العمدة ابراهيم السنى . . كانت المدينة تجله . . وتنزله مكانة يستحقها . . فهو الى جانب امامته للمصلين في الجامع الكبير . . والى ادائه للحج سنويا . . والى انه حفيد لمدني السنى . . فهو حافظ للقرآن الكريم يرتله بطريقة مؤثرة تذيب القلوب . . ومن المحزن ان اجهزة التسجيل التي نعرفها اليوم لم تظهر في تلك الايام لتحفظ للاجيال المتعاقبة مثل ذلك الصوت التراث . . وذلك الاسلوب في التلاوة . . الذي يسبق الخشوع فيه الكلمات المقدسة وهي تنساب من قارىء القرآن الكريم . . الشيخ الفذ محمد الامين الذي تأثر به الى حد كبير مؤذن الجامع الكبير (ابرمضان) . . فدخل في منافسة مع مؤذن جامع البوشى الشيخ الفرنساوي فكان احدهما اذا سبق بالآذان للصلاة انتظره الثاني حتى يفرغ من آذانه . . ليبدأ هو . . الا في حالة واحدة . . هي شهر رمضان المعظم . . حين يدخل الى حلبة صراع التنافس . . مؤذن الى . . لا يعمل الا شهرا واحدا كل سنة . . ولا يؤذن الا لصلاة واحدة في اليوم . . هي صلاة المغرب . . ذلكم

هو مدفع الدلاقين الرابض على شاطى النيـل الازرق الغربي . .
شمـال الاساس . . الـذي تتملكه الحكـومـة . . ويـديـره رجـال
الشرطة . . شريطة الايكونوا انفارا . . وانما جاويشيه بشريطين على
الاقل . .

آخرون في المدارس

كان الشيخ عبد الغفار هو ناظر مدرسة البندر الاولية .. وكان من معلميها المشائخ شمس الدين الحنفي .. وخوجلي البشير .. وابراهيم كليب .. وعباس صالح ..

وكان من ابرز التلاميذ فيها حسين ودالحفيان .. وحسين توته .. ومهدي قسم السيد .. وابو بكر ابو عاقلة .. ومصطفى نميري .. ولفيف من ابناء الخواض .. وابناء ابو سنون وكان (الالفة) الذي يشرف على طابور الصباح هو الفة السنة الرابعة .. جبر عبد الرحمن .. وكان المعلم المسؤول عن الطابور هو الشيخ شمس الدين الحنفي .. وكان وسط هؤلا تلميذان من اشهر التلاميذ في المدرسة . هما الرشيد دياب .. وسعيد عبد الخالق مكي .. اما الرشيد دياب كان مكان احترام الناظر والمعلمين وبالتالي التلاميذ .. فهو ينتمي الى ابو حراز عاصمة العركيين .. المنطقة التي ارتفعت فوق ارضها ٩٩ بنية ..

بينما قبة الشيخ عبدالله العركي التي بناها الملائكة .. وضريح الشيخ ابراهيم المخفي .. الذي قيل ان الشيخ حمد النيل اعتاد ان يزور اضرحة اجداده وابائه من وقت لاخر .. لكنه حينما يزورها في المناسبات الدينية الكبيرة .. وفي واحدة من تلك المناسبات بعد ان قام بالزيارة المعهودة .. سمع صوتا قريبا منه يقول .. والماعنده بنية .. ما بدوه التحية .. فسأله الشيخ حمد النيل من انت .. قال انا ابراهيم .. فغرس الشيخ حمد النيل عصاه في ذلك المكان وامر

بناء ما يميز الشيخ ابراهيم المخفي . . وال دياب في مدنى قيل شيعة العراق . . فعندما يختار الله الى جواره احد الشيعة في العراق . . فإنه يدفن في مقابرهم في النجف الاشرف او كَربلا واسقف جميع التاكسيات في العراق صممت فيها شبكات خصيصا لحمل النعوش . وال دياب يدفنون موتاهم في ابو حراز . . والناظر والمعلمون في البندر الاولية يدينون بولاء ديني لاشك فيه لرجال الله الصالحين من العرقيين حملة مشعل الطريقة القادرية . .

اما سعيد عبد الخالق فقد استمد شهرته من ابيه عبد الخالق مكي . . وهو شخص مجتهد دؤوب في سعيه اليومي للحصول على رزقه ورزق ابنائه . . يذبح (كيري) في البيت . . لكنه يذبح احسن الخراف . . ويقوم ابناه عبده وسعد الى جانبه . . بتوصيل اللحم الى الزبائن . . لكيلا يكشف امره فيقدم للمحاكمة . . ومع ذلك فقد ضبط عشرات المرات . . لكنه ظل يذبح (الكيري) .

وكان ناظر المدرسة ومعلموها من الزبائن الدائمين . . لعبد الخالق مكي . . الذي كنا نحسد ابنه (سعيد) على وصوله الى المدرسة احيانا بعد الطابور وكان الوحيد الذي لا يسأل لماذا تأخر . . وكنا نحس بأنه يعامل معاملة خاصة مما جعلنا نعمل له الف حساب . . وكان عبد الخالق مكي ملكا لحلاوة المولد . . او هكذا تصويرنا نحن الصغار . . ليس لأنه بمثابة الاب لنا جميعا لاننا نسكن شارعا واحدا . . ولكن لاننا نحن من صناع ما يبيع من حلويات . . فكنا . . جميع ابناء الحاره نعمل عنده بالمجان في تقشير الفول لاسابيع . . ثم نوقد النار . . ونشارك في صنع حلاوة المولد . . ثم نساعد في عملية البيع اما بالتوزيع على بعض الزبائن في بيوتهم او في المولد نفسه . .

وللحقيقة فان حلاوة عبد الخالق مكي .. كان يشتريها الموظفون والتجار .. لاسباب لا تقتصر على الجودة وحدها .. ومن بين المشترين ناظر المدرسة .. وبقية المعلمين ..

وكان التلاميذ جميعهم يخشون كل المعلمين .. لكنهم كانوا يحبون الشيخ شمس الدين الحنفي .. فهو رجل رقيق جدا وعطوف على الرغم من محاولاته الظهور بالشدة .. اذا نفذت عقوبة الجلد في تلميذ .. اخذ يواسيه ويلطف الامر بالقول ان المعلم هو بمثابة الاب .. اما هو شخصياً فإنه لا يعاقب بالجلد الا مضطراً .. ولا تزيد عدد الجلدات عن اثنين وبسوط قصير لا يزيد عن عشر بوصات .. ولا يضرب في مقتل .. وكان يعتمد على لسانه .. كان يشتم التلميذ بقوله (ملعون ابوك .. يابن الكلب) ثم لا يسمح لنفسه بأن يخرج ذلك التلميذ من المدرسة الى بيته وهو حزين .. فكان يطيب خاطره امام التلاميذ جميعاً .. فيقول له يابني .. انا لما اشتمك واقول ليك ملعون ابوك ياابن الكلب .. انا لا اقصد ابوك اللي في البيت .. انما اقصد ابوك اللي هنا .. يعني انا .. هو انا مش ·ابوك .. فيبتسم التلميذ ويقول نعم . ثم يذهب في سبيل حاله ..

وذات صباح .. وفي الطابور .. نادى الشيخ شمس الدين الحنفي على التلميذ سعيد عبد الخالق مكي .. وكان الشرر يتطاير من عيني الاستاذ .. وفجأة انهال عليه ضربا وشتما .. الضرب زاد على معدله العادي اصبح ضربات وفي مقتل .. والشتائم انهمرت كالسيل .. حدث ذلك وسط دهشة جميع التلاميذ .. ان يعاقب سعيد فذلك امر مدهش .. وان الشيخ شمس الدين عن عادته في العقاب فذلك مثير لدهشة اكثر .. وبكى سعيد .. وهنا تقدم

(الالفة) جبر عبد الرحمن من سعيد واخذ يطيب من خاطره قائلاً :
يا سعيد انت عارف أن مولانا شيخ الدين هو والدنا جميعاً :
وهو دائمًا يؤكد على أنه حين يشتمنا قائلاً ملعون أبوك يا ابن الكلب .. يعني هو .. ويكشر الشيخ شمس الدين .. ويصر على اسنانه .. ويرجع الى الخلف ثم يتقدم الى الامام وينهال بسوطه على (الالفة) قائلاً :

لا انا بقصد أبوه اللي في البيت ملعون أبوك انت يا ابن الكلب .. أبوك اللي في البيت .. ومع ذلك .. فانه لا ينتصف النهار الا ويعود الشيخ شمس الدين الحنفي الى حنانه المعهود وطيبته التي لا يخطئها احساس التلاميذ .. فيكرر التأكيد بأنه انما يعني أبوه اللي هنا .. فيخرج التلاميذ الى بيوتهم .. لا يحملون له الا المزيد من الحب ..

وهناك مالا يمكن للشيخ شمس الدين التهاون فيه الا وهو حفظ القرآن الكريم .. فإن الذي لا يحفظ السورة المقررة .. سوف يخرج من الفصل .. ويحدد له مكان في حوش المدرسة المشمس .. لا يبرحه الا بعد أن يحفظ السورة .. وكان البعض يبقى في مكانه ذاك حتى صلاة العصر .. والشيخ شمس الدين لا يبارح المدرسة ابداً الى أن يتأكد من الحفظ ثم بعد ذلك تجيء العقوبة ..

وفي العطلة الصيفية يلتقي التلاميذ بغيرهم من ابناء الحارة .. يلتقون متاجرين وعاملين .. ويلتقون في رحلات معظمها ان لم تكن كلها الى الحي البريطاني .. وحتى مباني مصلحة الري .. والى جزيرة الفيل .. والى الجروف على شاطىء النيل .. والى (البلدات) والمزارع المطرية .. سعياً وراء النبق واللالوب .. والتمر هندي .. والليمون والجوافة والبطيخ والتبش .. وقناديل الذرة قبل نضوجها لتشوى بالنار ثم تؤكل .. وكان يلاقون من

المصاعب الكثير . . فان الذي يقع فريسة في أيدي الحراس . . تنزل به العقوبة التي استحقها كل من اشترك في اقتراف الذنب . . وأكثر الذنوب والخطايا أن تضبط وأنت تجمع (الزونيا) فهي الفاكهة المفضلة عند الخواجات وعند الذين يعملون عندهم من الجنانينية . .

وفي تلك الايام كان نادي النيل الرياضي قد سبق الاندية الرياضية كلها في السودان بانشائه لاول استاد خاص به . . أرضه زرعت بالنجيلة واسواره بالتمر هندي . . وهو يقع بين السجن والكنيسة الانجليزية التي امضى في مشاركة بنائها أحد بناة الاغنية الحديثة . . اسماعيل عبد المعين . . الذي امضى قرابة عام فيها بعد تخرجه من مدرسة الصنايع بعطبره . .

وكانت هناك ماسورة قطرها يزيد على العشرين بوصة . . اعتدنا بقيادة (جبوري) أو الفنان حميده محمد سعيد فيما بعد أن ندخل فيها متراصين من الجانب المقابل للسجن لتخرج من الجانب الآخر المجاور للكنيسة الانجليزية وهي مسافة لا تقل عن المائتي متر . . ولندلل على أن جبوري ليس اشجعنا رأينا أن يتقدم ذلك القطيع الصغير في كل يوم شخص مختلف . . وحين جاء دور عبد العزيز شدو . . وتقدم زاحفاً لخطوات اذا به يتراجع صارخاً معلناً عن وجود شخص ميت في الداخل . . وهنا ، اخذنا نقترب من الماسورة بين مصدق وغير مصدق للنبأ . . الى أن حسم جبوري الامر بأن جر الميت من قدميه حتى بان للجميع . . وهنا عدونا بأسرع ما نستطيع بعيداً من المنطقة لكيلا نتهم بأننا القتلة . . لكننا غيرنا رأينا في اللحظات الاخيرة . . واجتمعت كلمتنا على تبليغ الحكومة بالحادث تبرئة لذمتنا . .

وكان الحكومة في نظرنا هي السجان الذي يقف ديدبان في

بوابة السجن . . فتقدم بعضنا منه . . صائحاً . .

يا عم يا سيد السجن . . في الماسورة في راجل ميت . . ثم اطلقنا سيقاننا للريح . . لا نلوي على شيء . . لكنني اذكر . . أنه بعد ذلك الاكتشاف . . اكتشاف الرجل الميت داخل الماسورة . . كأننا وقد كبرنا فجأة . . فلم نجتمع كتيم . . أو نلتقي كمجموعة الا ونحن في سني الشباب . . ولم نقم برحلة من أجل التمر هندي أو البطيخ أو التبش . . ولم نقترب من الماسورة . . تلك الماسورة . . وان كان اقترابنا هذه المرة من ماسورة اقضت مضاجع الانجليز . . حيث أبطلت لهم احتفالاً هاماً من احتفالات الامبراطورية الذي يقام سنوياً كأنه احد الاعياد الكونية ولهذه الماسورة قصة تروي . .

طابور المفتش الانجليزي

كانت ودمدني تستيقظ فجر كل خميس ليكون معظم سكانها في الشارع يحملون المقاشيش .. وعلى كل ساكن بيت تقع مسئولية نظافته من الداخل .. ومن الخارج .. وكانت عملية النظافة هذه يقوم بها الصبية والفتيات دون العاشرة .. في تلك الايام كانت البنت .. أي بنت تحبس بعد الخفاض مباشرة .. ولا ترى الشارع مرة اخرى الا وهي في طريقها الى بيت الزوجية .. او الى المقابر كما تقول حاجة كاشف .. وكان طابور من الحكام يمر على كل حارات المدينة .. على رأس الطابور المفتش الانجليزي واعني مفتش المركز .. يرافقه المأمور .. ونائب المأمور .. والعمدة وضابط الصحة .. وشيخ الربع . أي شيخ الحارة ..

وكان الشيخ احمد شيخ ابراهيم هو شيخنا .. الذي تنتهي مهمته في القسم الاول .. ليتسلم شيخ آخر نفس المهمة في ربع آخر ، وللحقيقة فان النظافة كانت احدى الظواهر الايجابية في ذلك الزمان .. ولكن مع ذلك ففي فصل الخريف تنتشر الملاريا .. وينتشر الذباب وللحقيقة ايضاً فان الشوارع لم تكن في حاجة الى نظافة فهي نظيفة بسبب الفقر العام .. ذلك ان العلب الفارغة (سفن اب) التي تمتلىء بها كوشة اي حارة من حارات الثورة بامدرمان .. تساوي في حجمها عشرة امثال الاوساخ التي يزيلها مواطنو المدينة مجتمعين خلال عام كامل من الزمان .. فالاوساخ في ذلك الوقت كانت عبارة عن مخلفات الحمير والخيل التي تجر

الكارو . . اما الاولى فان العم اسماعيل عجمي تولى أمرها حين حولها الى تجارة . . واما الثانية فتتولى امر سلطات الصحة التي استخدمت لها من يهتمون بازالتها . . اما ورق اللف . . فشأنه هو الآخر . . شأن صاحبه . . مخلفات الحمير . . فالعم اسماعيل عجم يتولى أمره ايضاً . . على قلته فان ما يوجد في الشوارع لا يزن كيلوجرام واحد في اليوم . . فمشتريات القادرين نوعاً تتم مرة كل شهر . . أو مرة كل نصف شهر . . ومشتريات الاغلبية تتم يومياً . . وبالاخص السكر والشاي والبن . . حتى العيش . . واكثر من تسعين في المائة من السكان يأكلون الفتريتة التي تطحن (بالمرحاكة) وهي مهنة تخصصت فيها الفلاتيات . . اذ تتولى الواحدة منهن مسئولية الطحين تلك لعدة بيوت . . وان كانت اغلبية البيوت تباشر نساؤها عملية الطحين دون الاستعانة بأي جهة .

اما الطاحونة . . فان دقيقها مما يعاب به . . فتجد أن صاحبة البيت تعتذر لضيوفها بأن الفلاتية غابت أمس بما اضطرت معه الى ارسال العيش الى الطاحونة . . فطعمه فطير . . ويصيب من يأكله (بالكوفار) واشتهرت حاجة حفصه بأن طحينها هو الاحسن . . فكانت الوحيدة بين بنات المهنة التي لا تدخل البيوت لمزاولة مهمتها هناك . . وانما حرصت ربات البيوت على ارسال عيوشهن اليها في منزلها . . مثلها في ذلك مثل أي طاحونة في المدينة . . لم تكن المدينة في حاجة الى كل تلك الضجة حول النظافة . . فان الفقر اثبت انه اعظم منظف في التاريخ . . بل ويغسل اكثر بياضاً . . لو تركت الغنم تسرح وتمرح كما تفعل غنماية اليوم في امدرمان لاستغنى المجتمع بثلاث من الاغنام عن كل تلك الهيصة . . فان الدلاقين والاوراق ما كانت تكفي لغذاء تلك الاغنام على قلتها . . لكن الغنماية نفسها كانت تعدها الادارة الانجليزية وسخاً بين

وسخا بين الاوساخ . . بل اخطر الاوساخ . . فهي تأكل الزرع في الميادين العامة . . وتفسد التربة فيها . .

ولهذا كان الخفراء يلقون القبض على أي غنماية يجدونها في الطريق العام ويودعونها (الدخولية) وهي زريبة حكومية واسعة متعددة الاغراض . . تؤجر سنوياً الى متعهد ويجدد عطاؤها دورياً . . وفي هذه الدخولية قسم يعرف بزريبة الهوامل . . تسجن فيه الاغنام الضالة . . على وزن الكلاب الضالة . . ثم يفتقد صاحب الغنماية حيوانه . . فيسأل الراعي . . ودحسين دلى وهو صاحب ذاكرة فيلمية تسجيلية . . يعرف اغنامه الواحدة ايها خرج معه للرعي وايها لم تخرج . . وبعد عودته من الرعي اليومي يتأكد من تسليم كل بيت غنمايته او غنمه . . وحينما يعلن الراعي ان الغنماية المذكورة لم تخرج معه في ذلك اليوم فأن صاحبها يذهب من مكانه ذاك الى الدخولية . . فيحدق في زريبة الهوامل حتى يرى ما يبحث عنه . . فيحمد الله ويجيء الى أهله يحمل البشارة . . منتظراً الصباح بفارغ الصبر ليخلصها من الاسر . . حاملاً في نفس الوقت هم الغرامة . . التي تبدأ بخمسة قروش تتصاعد حتى الخمسين قرشاً في حالة كثرة السوابق . . وفي تلك الحالة يتعذر على صاحبها اعادتها مرة كآخرى . . فان الغرامة المفروضة عليها تساوت مع ثمنها في السوق . . وكأنه اذا استردها كأنما يشتريها لاول مرة . .

وكان ابي رحمه الله بعد أن تقاعد بالمعاش . . ولم يتقاعد معه لقبه الافندي . . استأجر الدخولية وكنا نحن ابناء الافندي . . نخرج من الكتاب الى البيت . . فنلتهم كسرة بي موية . . بسرعة . . ثم نجري الى الدخولية ونحاسب عند وصولنا اليها عن

التأخير . . وكانت عملية مشاركة . . بيننا وبين والدنا . . فكان هو يتقاضى اجر بقاء الحيوان داخلها . . وكان اخي الاكبر يخزن القصب لاطعام الحيوانات بالثمن بطبيعة الحال . . وكنت اتولى سقايتها من الحنفية وهي مسئوليتي . . وعائدها لي . . لانني اسدد فاتورتها . . وكنا نجمع حصيلة يومنا نسلمها لابي . . وكان يحفظ حساباتنا في دفاتر . . كل دفتر يخص واحدة من المهام . . ولما كان ابن عمتي هو معاون السوق الجديد في ودمدني . . فانه سخر كل سلطاته وتحت امته خفراء شداد غلاظ . . ان يقبضوا عى كل حيوان يدخل السوق وايداعه الدخولية . . وكانت الدخولية تمتلىء بالجمال والابقار والحمير . . بعكس زريبة الهوامل التي لا يسعى بداخلها غير الماعز وكان اخي يطعمها دون أن يطلب اصحابها ذلك وكنت اسقيها دون ان يطلب احد مني ذلك . . وتتم المحاسبة عند حضور اصحابها لاستلامها بعد أن يفرغوا من عمليات البيع وهلر والشراء . .

وكان يوم الاثنين ويوم الخميس من كل اسبوع من الايام التي يزدحم فيها العمل . . فانهما يوماً السوق حيث تمتلىء الزريبة بصورة رهيبة . . فنضطر الى دق الاوتاد وما اكثرها خارج اسوارها المبنية من الشوك . . وهو يوم مال اوفر . . ومع تلك الارباح التي كنا نحققها . . ونسلمها الى ابي يومياً . . وتسجل لحسابنا في الدفاتر الخاصة بنا . . الا ان اصعب الامور كانت حين نطلب منها شيئاً . . والذي كنا نطلبه ثمن تذكرة لدخل السينما . . ويكون الرد . . سينما . . سينما . . هي السينما دي كل يوم . . قريب ده ماكنتو في السينما . . وقريب ده المقصودة يكون مضى عليها اكثر من شهر . . واقسى ما كان يصادفنا في تلك الايام . . ان نجلس بين اقراننا وهم يحكون ما شاهدوه في السينما ولم نشاهده . . نحن . .

وحين تبدلت الحال . . الى حال احسن بالنسبة لمفهوم السينما عند والدنا . . وكان ينظر اليها باعتبارها مفسدة للاخلاق . . وأصبح لا يمانع من دخولها ومدنا بالمال اللازم لشراء التذاكر . . كان شرطه أن يكون الفيلم الذي نشاهده ذا هدف تربوي واخلاقي يدعو الى الفضيلة والمثل العليا . . وايضاً نقوم في اليوم التالي . . برفع تقرير له عن الفيلم . . بحيث يجلس الينا مصغياً ونحن نروي له احداثه ونحدد له اهدافه النبيلة . . ومراميه . .

وكنا الى جانب السينما . . عشقنا الى درجة الادمان قراءة روايات الجيب . . والبوليسية منها بصفة خاصة وعلى الاخص اللص الشريف ارسين لوبين . . وكنا نتبادلها فليس في مقدور احدنا أن يشتري كل الروايات فكنا نتفق على عملية الشراء . . هذا يشتري القط الفرعوني والثاني الماسة الزرقاء . . والثالث القاتل العاشق . . وهكذا . . ثم نلتهمها التهاماً . . فكان الواحد منا يقرأ بمعدل ثلاث روايات يومياً . . وكان اكثرنا اهتماماً وحرصاً على اقتناء روايات الجيب وقراءاتها محمد احمد عرابي فهو يستحق وعن جدارة لقب القارىء الاول . . لكل الروايات . . فهو يقرأ ما نقرأ ونضيف عليه قراءة شرلوك هولمز . . وكنا جميعنا تقريباً قد اتخذنا جانب ارسين لوبين . . لوم نقلل من شأن شرلوك هولمز . . فصاحبنا كان يأخذ من القوى الظالم . . ليعيده حقاً للفقير المطحون . . فان سرقات ارسين لوبين لم تكن من اجل السرقة ابداً . . بل لخدمة المحتاجين ولهذا كان بطلاً نتشبع له .

ومن حين لاخر كانت تصدر بعض الاعداد الخاصة من روايات الجيب عن واحدة من القصص العالمي . . وقراءتنا لها كانت تتيح لنا دخول السينما لمشاهدة واحدة من افلام العنق مثل آل كابونا

الـذي يضطلع بتمثيـل حياتـه الممثل السينمـائي العـالمي جيمس كاجني . . وهي من الافلام المحرمة علينـا . . او احد الافـلام الكوميدية لفوزي الجزائري . . واحسـان الجزائـري . . وعرفنا من خلال افلامهما بأسم بحبح . . وام احمد . . وبحبح هذه هي التي الصقت بعثمان فرفشه حين كان يؤدي منلوجاته واشهرها بحبحه . . فـرفشه . . وحـين نعود من مشـاهدة آل كـابونـا . . وبحبح وام أحمد . . كنا نروي لوالدنا القصة العالمية التي قرأناها في روايات الجيب وكانت بعض الافلام تأخذ كل اهتمامنا لدرجة اننا نحفظ كل كلمة قيلت فيهـا عن ظهر قلب . . وبـالاخص افلام عبـد الوهاب . . وفيلم رابحة . . وشد ما كان يضايقنا اولاد الحلبة الذين يحكون لك وقائع الفيلم لانهم شـاهدوه قبلك فيحـرمونـك متعة المفاجأة . . وهنـا تكون المشـاجرات والضـرب بالايـدي وتدخـل البوليس . . .

تماسيح النيل الأزرق

كان نادي النيل الرياضي بودمدني يضم الى نشاطاته المتنوعة وما اكثرها .. رياضة السباحة .. وكان ابرز اعضائها عبده الخانجي .. وكامل خفاجة .. وسعد محمد ابراهيم .. وفريد طوبيا .. وعبدالله مرسال .. كانوا يتسابقون للفوز بالاولوية في عبور النيل الازرق من موردة الخشب المجاورة للاساس .. وسراي السيد عبد الرحمن .. والكلية القبطية .. الى الضفة الشرقية للنهر .. والعودة السريعة دون التقاط الانفاس .. كانوا يرتدون زياً موحداً اقرب الى المايوه الذي ينزل به الى البلاج .. شارلي شابلن في عهد السينما الصامتة .. وكنا نجتمع في الشاطىء نشاهد في رغبة عارمة ما يجري امامنا .. متطلعين الى اليوم الذي يصبح مسموحاً لنا فيه النزول الى الماء .. وممارسة العوم . اذ كان ذلك محرماً علينا .. بل كنا نعاقب عليه فحوادث الغرق كلها كانت من نصيب الاطفال . ولها مواسمها الخاصة بها .. واهمها شم النسيم .

واذا تصادف ان كان الغريق من بيننا فأن العقوبة تشملنا جميعاً .. وتستمر الى عدة ايام وربما اسابيع .. ولكننا مع ذلك كنا نغافل اهلنا ومعارفنا وننزل الى (البحر) نعوم ونعوم .. ولكن بعيداً عن الشاطىء القريب من حارتنا .. كنا نذهب الى الدباغة بعد أن نعبر فريق فلاتة .. ونمر عبر تجار السمك الذين اقاموا افرانهم ومناقدهم وصاجهم في الجانب الغربي لام سولية .. ومن ابو شبيكة وما حوله وهم بالعشرات .. وعلى بعد خطوات ليست قليلة تمتد

افران (النيفة) حتى الدباغة .

ولا اذكر يوماً واحداً شاهدت فيه بائع (نيفة) او سمك يمر ببضاعته منادياً عليها . . ولا اذكر ايضاً باني شاهدت مشترين في اماكن توضيبها وصناعتها . ولم اسأل نفسي الى اين تذهب تلك البضاعة بعد أن ترص في الطشوت . . ويتحرك بها حملتها في اتجاهات كلها تصب في (ام صوفة) غرب ودمدني . . والحلة الجديدة او ديم المفتش في جنوبا . . وهما موقعان من المدينة ترفعان من الاعلام اضعاف ما هو مرفوع في دول العالم . . فاعلام الموقعين يعنيان ان المكان مستعد لاستقبال زبائنه . . فأنهما مستعمرتان للمريسة وهي مصرح بها . . لكن عرقي العيش لا يعدم مكاناً في بعض المساحات . . تماماً كما يحتال بعض الزرع في استثمار حوض او اثنين لزراعة الحشيش وسط الباميا أو القطن . . وهي غالباً ما تكون عرضة لرقابة البوليس ومداهماته من وقت الى آخر . .

كنا نسبح في الدباغة . . ذلك أن شاطئها بعيد عن حارتنا وفيها ميزة لا تتوفر لنا الا في مكان آخر هو جزيرة الفيل . . وتلك الميزة في الدباغة اننا نضمن بعد التعب المضني ورياضة العوم التي تستهلك جانباً كبيراً من الطاقة مما يورثنا التعب والارهاق الى جانب الجوع كنا نجد في منزل أو مسجد . . أو مسيد الشيخ الحسن صلاح . . الظل والطعام . . وفي جزيرة الفيل كنا نجد ذلك في منزل الشيخ محمد طه ودشقدي . . وهو نفس المنزل الذي أمضى فيه السيد عبد الرحمن المهدي جانباً كبيراً من صباه حينما كان يعمل بالزراعة في جناين ودشقدي وهي ايام ذاق فيها . . وكل اسرة المهدي الأمرين من اضطهاد الانجليز خشية أن يثير ظهورهم بين الناس ما يثير الفتنة . . ويزعزع الاستقرار في البلاد . . وكنا في

المكانين نجد الحفاوة والرعاية والاحترام .

وذات عصر . . ونحن وقوف اما الشاطىء نراقب مباراة العبور بين اباطالها . . وكانت مباراة ذات اهمية خاصة لان الشاطىء ازدحم ذلك العصر بالجماهير . . والمتبارون اوشكوا أن يتخطوا نصف النهر . . انا باحد المتسابقين وهو من ابرعهم تصدر عنه آهة دالة على الم ممض ولو لا الشجاعة لتحولت الى صرخة يردد صداها الشاطئان . .

وتجمع السباحون حول زميلهم تاركين ما هم فيه من سباق وتسابق . . ثم اذا بمركب يعتليها نفر ممن تعتبر السباحة جزءاً من عملهم . . تتحرك الى داخل النهر . . وبعد فترة من الزمن خيل الينا انها الدهر كله . . وصلت المركب بحمولتها من السباحين . . وفي وسطهم يتمدد كامل خفاجة شبه مشلول . . منهوك القوى . . يتنفس بصعوبة .

نجا من موت محقق فان (بردة) لامست جسمه فافقدته القدرة على الحركة . . والبردة فصيلة من الاسماك تتمتع بشحنات كهربية طبيعية حتى اذا ما لامس جسمها اي جسم آخر فعلت به ما تفعله الكهرباء . . ذلك ما قيل لنا ايامها وانتهزن ذلك القول الامهات فاضفن البردة الى التحذيرات التي اعتدن صبها في آذاننا لكي نبتعد عن النهر الغادر . . وأرجو لو أن الاخ الدكتور ود الريح افتانا بعلمه عن البردة وقصة الكهرباء فيها . . ربما لفت نظر الاخ محمد .نصر ابو بكر مدير عام الهيئة العامة للكهرباء ولو استعان بالخبرة الصينية في انشاء احواض لتربية السمكة تلك . . اذ ربما نح بها بعض مشكلات الكهرباء التي نعاني منها . .

وبعد ان انقذ خفاجة وضعت تلك البردة نهاية لفريق السباحة

بنادي النيل . . فلم تقوم له قائمة بعدها . . واحجمنا نحن بدورنا عن السباحة في النهر وان كنا نذهب اليه يومياً سعياً وراء الجميز والنبق واللالوب والحمبك . .

وفي احد الايام ونحن نجمع العرديب من شجرة شمال مدرسة مدني الاميرية وكان بيننا اثنان اشتهرا باتقان التنشين هما كامل محمود فهمي . . وحمزة يوسف على شدو . . ظهرت سحلية وديعة تجري مسرعة من تحت حائط المدرسة في اتجاه شجرة العرديب . . وكان كامل محمود فهمي دون أن نلاحظ ذلك . . يضبط الحجر في يده وهو من الفخار الذي ينحته في اشكال دائرية . . ويصوب نحو الحلية ثم يقفذها بذلك الحجر . . فيقطعها الى نصفين وبالطول . . وصرخنا كلنا لهول ذلك الفعل . . لان السحلية وديعة . . والمعلومات التي أصبحت عقيدة عندنا هي انها تحمل مفاتيح الجنة . . فبكى معظمنا وهنا فقط صرخ كامل صرخة داوية . . وسقط على الارض في حالة غيبوبة تامة يرغي ويزبد . . واطلقنا نحن سيقاننا للريح . . لنبلغ اسرته وجاء اهله وحملوه الى المستشفى ثم الى البيت . . وظل طريحاً لفراش مرضه ذاك اكثر من نصف عام لا يفارقه ابداً . . حتى فقد ثلاثة ارباع وزنه . . ودخلتنا رهبة من السحلية . . فتلك عاقبة من يعتدي على حاملة مفاتيح الجنة . . وقد ظهر فيما بعد أن كامل اصيب بالتايفويد . . ولم يكن للسحلية اي دخل فيما اصابه

اصبح بعد ذلك الذهاب الى قرب النهر من المستحيلات . . فاتجهنا كلنا الى جامع البوشي . . الذي سمح لنا القائمون بأمره أن نؤذن فيه ما امكن ذلك والذي وقف الى جانبنا شيخ فاضل تعرفه المدينة كلها لصلاحه وتقواه . . الشيخ قسم الله الذي كان المنافس

الاوحد للاطباء وللمستشفى . . فان معظم الاسر تستدعيه (ليعزم) لمرضاها . . حتى يتم الشفاء . . والذي اغرانا بالاتجاه الى (الآذان) هو اكتشاف هذه المنزلة العالية . . فلم يسبق لنا أن رأيناها من الداخل . . وأن الصعد الى قمتها يتيح لنا أن نرى المدينة كلها . . واهم من ذلك فقد قيل لنا . يبعث الناس يوم القيامة عرايا تماماً كما ولدتهم امهاتهم . . الا المؤذن فأنه الشخص الوحيد الـذي يبعث بكامل ملابسه . . وتجربة العري تجربة مريـرة صادفنـاها . . فيـما بعد . . واعتمدنا بعد ذلك على الايام التي نادينا فيها للصلاة من جامع البوشي باعتبارها اكبر ضماناتنا يوم القيامة وان نبعث بملابسنا كاملة دون سائر الخلق .

اما أصل القصة . . فأننا رأينا أن نحي فريق السباحة الذي انهت قصته بردة في النهر . . ولكن بعيداً عن نادي النيل . . واخترنا اضيق مكان في مجرى النهر لنعبر منه . . وهو المنطقة الواقعة بين مبنى المديرية . . في الضفة الغربية . . وجنينه ابو زيد في الضفة الشرقية فهي منطقة يضيق فيها المجرى . . ولهذا فهي اكثر المناطق عمقاً واشدها اندفاع تيار . . وكـان يتزعمنـا (جعبوري) كنـا : عباس خليفة والريح الليثي . . وعطا المنان . . وعبد العزيز وحمزة وعباس شدو ويس سليم ويوسف ابو عين وسعيد عبد الخالق واحمد يوسف .

وكان (جعفبوري) يصور لنا ان عملية العبور تلك عملية خطرة جداً تستلزم ضبط النفس والاعصاب مع قـوة الارادة . . ويسبق ذلك كله شجاعة ضرورية . . فهناك بالقرب من الشاطىء الشرقي . . يوجد (العرق الحامي) يقصد التيار الضيق ولهذا فهو مركز الخطر . . اما تجاوزناه او رحنا طعاما للاسمـاك . . وكانت

تجربتنا الاولى . . لكن الذي شجعنا . . اننا عصبة . . فتوكلنا على الله ونزلنا الى الماء . . واخذنا نسبح مرة (كر) ومرة عوم وثالثة سباحة على الظهر وتخطينا منتصف النهر . . وزحفنا في خوف الى النصف الآخر ففي العرق الحامي . . الذي ما ان اقتربنا منه ، حتى ندت آهة من الريح الليثي اعقبتها صرخة منه ثم اخذ يغطس ويطفو موشكاً على الغرق . . وسرعان ما انتقلت العدوى للجميع فعلا صراخنا بلا استثناء ما عدا عباس خليفة فقد كان اكبرنا سناً وبكثير . . ومن حسن حظنا ان ذات المنطقة هي نفس مشرع المعدية فهرع الينا تيم الانقاذ وكان قريباً فانتشلنا من الماء عرايا كما ولدتنا امهاتنا .

وكانت المركب تزخر بالجمال والحمير والاغنام وجوالات العيش الى جانب الركاب . . ولم يكن ذلك كله مهمًا فالذي حذ في نفوسنا أن يكون بين الركاب عدد من النساء . . وفي ذلك اليوم . . وبعد أن وصلنا الى شاطىء الامان اصبحنا ملطشة ما من احد الا وانهال علينا بالضرب . . وعندنا الى بيوتنا احباء . . ولكن مثخنين بالجراح من آثار مطارق التمر هندي التي سرحت ومرحت فوق اجسادنا ومع ذلك لم ننقطع عن النهر . . الى أن تعودنا عليه واصبحنا نعبره في اليوم الواحد اكثر من مرة . . وتركناه بعد أن اجدنا التعامل معه لنشغل انفسنا بشيء جديد . .

واحد من فرسان اللعبة

الليلة يوهي . . فرع اِلجوافة . . الليلة يوهي . . محمد سليم قيافه . . تلك كانت من اغنيات البنات التي نسمعها في اعراس ودمدني . . حين يزف العريس الى منزل العروس . . وحين يصل . . يبدأ العديل والزين الخالدة . . وكانت هذه السيرة تمشي على الاقدام . . يتقدمها حملة المباخر من النساء والقتياداث من الرجال . . والفنيار نوع من الشمعدانات لا تراه العين الى في حالات قليلة . . يوم يمر مدير المديرية الانجليزي على سرادقات المولد النبوي الشريف في الليلة الاخيرة . . حين يصطف على جانبي طريقه نفر من رجال الشرطة يحملون تلك الفنيارات . . شمعة مضيئة داخل زجاجة مستطيلة على فازة من المعدن . جميلة الشكل . عليها كثير من النقوش . . وشكلها الهندسي العام قريب معاً نرى اليوم في خيال الفنان الاوروبي الذي يرسم مصباح علاء الدين .

والحالة الثانية سيرة العرس على الاقدام التي يتقدمها حملة هذه الفنيارات . . ويسير الى جانب العريس اصدقاؤه بينهم وزيرة . . وهو من سوف يتولى خلال ايام الفرح الطويلة التي قد تمتد الى اربعين يوماً . . ولا تقل عن نصف شهر باي حال . . يتولى مهمة السباتة . . من تحضير الفتيات وحثهن على المجيء (للعبة) وأن كن لسن في حاجة الى تحريض . . ثم العمل على تهيئة كل شيء متعلق باللعبة من مطربين واختيار الراقصات وتوزيع الفرص بينهم الى جانب الدفع للحلبيات وقلما تمر الليلة بسلام . . فقد درج بعض

الشبان . . لفتا للانظار باستعراض القوة . . وسعياً وراء الاعجاب بهم ان يكدروا صفو تلك الليالي بافتعال الشغب الذي يبدأ بالتبشير المبالغ فيه . . ولا يضمن اهل الفرح أن تمر ايامه بسلام وهدؤ الا اذا كانوا ممن ينتمون بصلة القرابة لاحد الفتوات في ذلك الزمان . . والقرابة هنا ليس بالضرورة ان تكون قائمة على صلة الدم . . اذ يكفي ان يكـون الفتوة من ابنـاء الحي . . واشهـر فتـوات تلك الايـام . . اسماعيـل تسمى . . وبرعي عبـد القادر . . وعـوض حلاوة . . ومحمد النيل عطية . . لم يكونوا من الصعاليـك . . بل اصحاب مهن محترمة . . وابناء اسر معروفة . . يشاركون في الحياة الاجتماعية وبخاصة الرياضية بما يجمع حولهم قلوب المهتمين بكرة الدم . . كاسماعيل تسمى وبرعي عبد القادر الذي كان يؤدي ولمدة طويلة وظيفة قلب الدفاع لنادي النيل الرياضي .

وكان من الفتوات مع ايقاف التنفيذ حسين تونة وشكـري كعكاتي . . والاخير واسماعيل تسمى تكمن خطورتهما في سواعدهما حيث كتبت (الحكومة) عليها بالوشم (ممنوع الملاكمة) . . وذلك ليس صحيحاً لكنه ما كان يتناقله الناس . . اما عوض حلاوة فقد انخرط في الحياة الحزبية وكرس لها كل جهده ووقته .

ومحمد سليم . . الذي نحن بصدده . . اشتهر بتجارة الصيني في بداية العملية . . وأشتهر بلعب كرة القدم في فريق الشاطىء . . الابن البكر للنادي النيل . . وذلك عندما كانت الكرة فروسية . . تعتمد على العنف اكثر مما تعتمد على المهارة الفنية . وأشتهر ايضاً بالقوة الجسدية وبخاصة ما يتصل منها بحمل الاثقال . .

والداخل الى بيته تطالعه صورة فوتغرافية وهو يرفع ماكينة عربة ويقف واقدامه ثابتة على الارض . . وهي من تصوير الخواجة

فرح المصوراتي الشهير في تلك الايام وبالكاميرات القديمة الضخمة المثبتة حامل كحوامل المساحين اليوم .. يعلوه صندوق خشبي مغطى بقماش اسود كثيف .. يدفن الخواجة فرح رأسه بداخله بعد أن يصدر تعليماته عاين هنا .. لا .. خلي عينك هنا في العدسة .. وعملية التصوير ايامها جديرة بالمشاهدة فهي تجمع عدداً كبيراً من الاطفال والمدهش أن الصورة التذكارية لمحمد سليم مع ماكينة السيارة التقطت في وقت كان عدد العربات جد قليل .. فأي انسان في المدينة يعرف عددها .. ويعرف ملاكها .. وباستثناء الانجليز وعلى رأسهم مدير المديرية .. فأن الذين يملكون السيارات هم على الليثي الذي يملك واحدة يرجع تاريخ صنعها الى العشرينات .. ودخلت الجراج للتخزين بعد شهور قليلة من استخدامها لان مصروفاتها كثيرة وحافظت على جدتها زماناً طويلاً على الرغم من اتخاذ ود ابرق لاماكن فيها اعشاشاً له .

ثم الشيخ ابو زيد احمد شيخ الجزارين ثم يوسف رمضان التاجر صاحب كنتين الأورطة .. اما التاكسي فكان اصحابه حميده سعيد عوض .. وفريد .. وحميدة سعيد قطب من اقطاب النادي الاهلي .. اتخذ له دكاناً في السوق به مكتب وتلفون .. فأنه لا يلف بسيارته طلباً لطرحة او على باب كريم .. لكنه يلبي الطلبات بالتليفون .. ويقيم معه في نفس الدكان فريد .. يبدأ عمله بعد خروج حميده .. اما عوض فأنا محدد المشاوير بتحديده لزبائنه .. وثلاثتهم ينتهي عملهم بعد الثالثة مساء اي يعملون حين تعمل مكاتب الحكومة .. لا يتحركون بعد ذلك الا في حالات الطوارىء .

وكان يشارك محمد سليم فروسية اللعب في ميادين كرة القدم

(ابو جقرة وعيسى المنيسي الذي كانت وظيفته حارساً للمرمى . .
وعنده تعبير شهير حين يسأله سائل . . ما هو الموقف اليوم . . فيرد
في ثقة ولا دبانة مش حتدخل . . وفي نهاية المباراة يندم مشجعو
الفريق على عدم احضارهم البف باف لكثرة ما يلج شباكه من
أهداف . .

وبسبب عنف اللعب عند مجموعة من اللاعبين بينهم من
ذكرت تقاعست بهم فروسيتهم عن الصمود الى الفريق الاول ماعدا
عيسى المنيسي الذي صعد الى الفريق الاول . . ثم تحول الى حكم
لا يشق له غبار . . حكم مهاب يخشاه اللاعبون . . فهو رجل
عملاق رسخ من المبدأ الكروي القائل بأن كلمة الحكم في الملعب
نهائية . . فكان الفضل يرجع اليه أكثر مما يعود الى القانون .

يقابل الفروسية عند نفس الجيل من حيث المهارة والفنية
اسلوب سانتو قلب هجوم الاهلي . . سانتو صاحب الاسم . . فهو
على جانب كبير من الرشاقة الجسدية فهو رياضي . . وعلى درجة
كبيرة من الوسامة . . يقنعك بأن لعب الكرة سلوك يرسخ الفهم
الصحيح للخلق الرياضي والروح الرياضي . . ولعب معه وبنفس
السلوك وفي ذات الفريق . . الاهلي . . بادي على عقارب ومرحوم
حارس المرمى . . وغيرهم في الاندية الآخرى مما ورد ذكرهم في
السابق

وكانت رياضة سباق الخيل منافساً خطيراً لكرة القدم . . وربما
كان السبب يعود الى اهتمام الانجليز بها . . اذ بينهم عدد كبيرة
يشترك في السباحة بحصانه . . وما من انجليزي واحد لا يملك
عدداً من الاحصنة . . له وزوجته ولابنائه . . وكان يشارك في تلك
الرياضة السيد عبد الرحمن المهدي . . وعبدالله خليل . . وحامد

صالح الملك . . والخواجة ليكوس . . وكان يحضره الحاكم العام . . وكان يتولى تنظيمه وادارته مجموعة من الموظفين العاملين بمصلحة الري . . سدره . . الهادي الجاك . . عبد الرحمن لاظ . . حوفي . . ومحمود حشاش . . والشخص الوحيد من خارج المجموعة كان علي ابراهيم عمر . . الموظف الكبير بشركة النور . . وحكم كرة القدم الشهير . . الشخصية الاجتماعية المرموقة خفيفة الظل . .

ويعود الى هذه المجموعة الفضل في وضع الاساس لنادي سباق الخيل الحالي بالخرطوم . . فهم الذين اسسوه واداروا شئونه . . ودربوا من حمل العبء بعدهم حتى اليوم .

وواضح من اغنية الزفة . . اليلة يوهي . . انها مزيج من الزار . . ومن الهستريا . . ومن الكلمات التي لا معنى لها . . فقط تبين ان ما يمكن أن يمتدح به العريس في تلك الايام هو أن يكون قيافه . . فالقيافة هدف عسير المنال اذا كان المطلوب كمال الاجسام مع تعدد الثياب وتنوعها ذلك أن معظم السكان كانوا يظهرون طوال العام بما يكاد ان يكون لبسة واحدة ولدوا بها . .

ولكن . . فان العريس . . محمد سليم . . كان يتمتع بكمال الجسم نسبة لشقفه بالرياضة وتفوقه في حمل الاثقال . . ولانه تاجر صيني . . ولانه رقم في الحياة الاجتماعية عموماً . . ولان العريس احد الابطال . . ولان برعي عبد القادر من الاسرة . . ولانه صديق وحليف لعوض الحلاوة . . فان الاحتفالات تطول لا يكدر صفوها شيء . . فيغني الشبلي . . وعوض الجاك . . وبايا . . وغيرهم من نجوم الطرب في تلك الايام حيث تجلس الفتيات على الارض فوق البروش ويجلس الضيوف على العناقريب التي خصص احدها للمغنين . . وكانت الافراح والليالي الملاح طاهرة من كل ما يدنسها

مثل الخمر . . فقليل الحياء جداً من يجرؤ لاشعال سجارة . . ذلك أن الكبار يطلون من وقت الى آخر ليطمئنوا ان كل على ما يرام والكبار ايامها قساة لا يرحمون .

علي الليثي

علي الليثي . . محمد احمد كعوره . . احمد البوشي . . ابو زيد احمد . . عبد القادر اسماعيل علي . . سيد مكرنجه . . احمد بابكر الازيرق . . ابراهيم وعيسى الريح . . احمد وابراهيم ويوسف وبابكر رمضان . . محمد وحسن يوسف الفيومي . . امبابي الدلال . . وتميم الدار الدلال . . واحمد وحسن وقيع الله . . محجوب سيد احمد . . ابراهيم حربي . . الامين الحاج . . والقائمة طويلة . . انهم اعلام في تاريخ ودمدني .

كان علي الليثي . . شيخاً فارع الطول . . يمشي على الطريق تتقدمه انحناءة خفيفة . . يخيل لمن يراه وكأنه يحمل هموم البشرية كلها . . فهو متجهم الوجه . . كعادة الكبار في تلك الايام . . دائم الحضور . . لافراغ عنده ابدا . . يبدأ يومه مع صلاة الفجر . . ويخرج من بيته قبل شروق الشمس بكثير . . ركبا حماره الاسود العملاق . . يرتدي الجلباب والمركوب والعمامة والفرجية . . امامه في السرج سيفه . . والى جواره بندقيته . . وفي يده عصاة . . كنا نعرف انه يتوجه يومياً الى الحواشات . . والحواشات تعني عندنا الزراعة . . وليس مشروع الجزيرة أو محصول القطن . . فالحواشة هي الخضر التي يمتلىء بها السوق . . وهي الفواكه وهي العيوش . . انها باختصار كلما تنتج الارض من خيرات بما في ذلك التمليكه . . والبامية البروس والحميض . . والفقوس . . والسينات . . والوصول الى الحواشات يستدعي سفراً طويلاً . . ولهذا فان علي الليثي في حالة سفر متصل طوال العام ولا ينقطع ابداً . . كان يخرج الى

الحواشات قبل شروق الشمس . . ويعود منها بعد مغيبها . .

وفي الحالتين يكون خير السيد الى جانبه . . وخير السيد ربيب لعلي الليثي . . يثق فيه كابنه تماماً . . جعله المتصرف في كل شأن من شئونه في العمل وفي البيت . . في الصباح يراجع معه احتياجات العمل . ويزوده بتعليماته . . وينطلق الحمار بعلي الليثي الى السوريبة . . احدى قرى الجزيرة الاقرب الى ودمدني من بقية القرى . . وهي القريبة ايضاً من حواشاته . . لم نسأل انفسنا يوماً كيف يعيش علي الليثي في الحواشات . . اين يأكل . . وماذا يأكل . . واين يجد ما يشربه من ماء . . وخيل الينا انه لا يأكل ولا يشرب ولهذا عظمت صورته في نفوسنا اكثر باعتبار الرجل الخارق في ذلك الزمان . . غير أن خير السيد كان شخصان . . خير السيد في الصباح وهو يودع علي الليثي غيره في المساء وهو يستقبله . . ففي الصباح يكون هادئاً جداً منسجماً مع نفسه ومع والده بالتبني . . ومع العمل . . اما في المساء فانه يتحول الى شخص اخر . . لا يتحمل نقاش التفاصيل . . الى الحد الذي يرفع فيه صوته مخاطباً علي الليثي باللغة الانجليزية قائلاً : فاكن علي الليثي ، ثم يتركه ويتجه الى داخل البيت . . ذلك أن خير السيد يكون في حالة تصفها يوميات الشرطة في هذه الايام بقولها انه عاجز عن نفسه ، فقد كانت المريسة جزء من حياته . . لا يستطيع ان يستغني عنها الا في حالة المرض . . وأن كان خير السيد لم يمرض على الاطلاق . . وكذلك كان علي الليثي .

والمشوار السفر . . اليومي الى الحواشات كان من مظاهره طوال العام ايضاً . . عشرات الجمال التي تطول رحلاتها من الخلاء الى البيت وهي محملة لفترة من الوقت بجوالات اعيش التي اعدت

لها مخازنها وبينها المطامير داخل البيت ولفترة ثانية تكون محملة (بالقصب) الى عيدان الذرة

وبيت علي الليثي بيت كبير جداً ديوانه مرتفع جداً عن بقية البيوت وان كان قد بنى من الجالوص . . وهو علي كبره ذاك كان اشبه بخلية النحل . . مدخله باب سنط ضخم لا يغلق ابداً طوال ساعات اليوم . . فهو مفتوح ٢٤ ساعة في اليوم . . وهو متصل بغرفة واسعة يطلق عليها . . اسم الدهليز . . ومنها تلج الى داخل الحوش وفيه يباع القصب . . واللبن . . ففي البيت ابقار . . وفي الصباح اللبن واللقيمات . . وكانت تتولى عمليات البيع تلك شقيقة علي الليثي . . وتدعى سكينة . . وهي امرأة قوية . . كثيرة الحركة . . عزيزة النشاط تصحو قبله وقبل كل الناس . . وتنام بعدهم . .

وقبيل الخريف يصرف علي الليثي جانباً من وقته في صيانة عقاراته . . فهو يملك حوانيت جيدة البناء مؤجرة في السوق . . ويملك بيوتاً من جودتها لا يسكنها غير الخواجات . . فهي من الطوب الاحمر المكحول . . ارضيتها من البلاط ومعظمها سقفه عقد . . والمكان القسم الاول من المدينة . . اما السكان . . فبينهم العم قصار . . والد نعيم قصار وادوارد وعزت . . وبين السكان ايضاً العم عبدالله سلطون وهو يهودي يشتغل بالتجارة شأن كل اليهود في تلك الايام . . والخياطة . . وان تكون البيوت الجيدة البناء سكناً للخواجات فقط دون الوطنيين . . فان ذلك لا يعود الى ضيق ذات اليد . . بل لان اكثر السكان كانوا يملكون بيوتهم التي يسكنون . . والعقارات المستثمرة . . أو الاستثمار عن طريق العقاد لم يكن مألوفاً في تلك الايام الا في السوق . .

كان علي الليثي اذن يصرف جزء من وقته قبيل الخريف في صيانة عقاراته . . وبينها بيته الذي يسكنه . . بالنسبة للمنازل اللوكس كان يعهد بها لمصطفى ميتو . . احد أشهر وادق العاملين في البناء بالمونة الحرة وصيانتها يقاسمه الشهرة عبد الكريم عساكر . . غير ان الثاني كانت عقارات قريبة احمد البوش . . تأخذ وقته كله . . فلا يتسع وقته لمزيد . .

المشكلة كانت صيانة المساكن التي تندرج في قائمة الجالوص . . فان خلافاً موسمياً كان ينشب بين علي الليثي ومحمد احمد كعورة .

وكعورة هو شيخ الصاغة . . وشيخ عرب . . لم يتخل طوال حياته عن لبس السروال الطويل والتوب والعمامة على طريقة معظم مشائخ العرب في السودان . . كان يسكن في القسم الاول . . وكانت له عقاراته اللوكس والجالوص . . وكان يفاجأ من حين لآخر بأن عدد العمال الذين تعاقد معهم قد تناقص . . معنى ذلك ان اعمال صيانته سوف تتأخر . . وسوف يداهمه الخريف . . فكان يقوم برحلة الى حيث يعمل العاملون في بيوت علي الليثي . . وغالباً ما يتعرف على بعض ممن كان قد تعاقد معهم . . وهنا يذهب الى الليثي ويبدأ معه الشجار ، وعلي الليثي مظلوم في ذلك لان التعاقدات واختيار الانفار جزء من عمل خير السيد . . لكن الشكلة غالباً ما تنتهي برضاء الطرفين . . فقد كانا كباراً بحق . . لم يحدث أن تدخل احد بينهما علماً بأنهما سوف يتفقان آخر الامر . . الشكلة الكبرى تقع بين علي الليثي ومصطفى ميتو . . فأن ميتو فنان ممتاز . . لكنه في بعض الاحيان يتسلم عملاً يمكن انجازه في يومين فيمضي اسبوع واسبوعان دون أن يكتمل . .

فمصطفى ميتو يعمل بمزاج .. يعمل يوماً ويتغيب ثلاثة .. وهذا يضيق به علي الليثي ويتوعده .. ويضيق مصطفى ميتو بعلي الليثي .. ويتوعده ولا شيء يتغير طوال السنين .

كان علي الليثي امياً لا يقرأ ولا يكتب .. لكنه كان امياً يقرأ ما يكتب هو .. ولو طرح ما يسجل في اوراقه من رموز لعجز عن فكها حجر رشيد .. فهو الشخص الوحيد الذي اخترع لغة عاشت بها اعماله .. لا يعرفها غيره .

وحين رحل .. ماتت من بعده لغته تلك .. كما ماتت من بعدها لغات الدنيا كلها .. وتغيرت بالتحريف .. ماعدا لغة القرآن الكريم فهي منذ ان وجدت لم تتغير ابداً .. فهي اللغة الوحيدة التي لم تحرف او تتغير .. هكذا يقول الدكتور عون الشريف .

الحياة الوادعة في مدني

وتستمر الحياة في ودمدني على وتيرتها الواحدة .. مرتبطة بالصيف والخريف الصيف .. وبضعة اشهر تسمى شتاء .. لا يغير من رتابتها الا فجعة موت .. أو قادم من حج أو عرس أو طهور .. والموت كان ، موت الله ، لا يجيء نتيجة لحادث الا حادث قتل .. وهي قضايا في مجملها موحدة الاسباب .. لانها تتعلق بالشرف .. شرف البنت الذي هو زي عود الكبريت ..

غير أن حادثتين اثنتين اهتزت لهما المدينة زماناً طويلاً .. اولهما راح ضحيته عدد من الناس تجمعوا داخل بص في طريقه من مدني الى داخل الجزيرة .. والبص عبارة عن بوكس صغير بتخشيبة قليلة المتانة كثيرة الزخرفة .. هو اقرب الى المركب منه الى السيارة .. يركبه الانسان والحيوان على السواء .

كان في طريقه الى داخل الجزيرة .. وهناك في المزلقان الذي لابد لك من عبوره لتدخل السوق الجديد .. كان قطار السكة الحديد مندفعاً .. واحتضن ذلك البكس بركابه الذين يزيدون على العشرين فقضي عليهم اجمعين .. الا من راوية تقول ان امرأة طارت من داخله وبيدها مقشاشة هبط بها الى الارض سالمة .. ونسب ذلك الى صلاح تتمييز به دون بقية الركاب .. وكان رجال الله الصاحين لا يذوقون الموت .. أو هم محصنون منه عندما يقع بتلك الطريقة ..

اما الحادث الثاني .. فأن تاريخه جاء قريباً من الاول .. فقد

اعتاد نفر من العاملين في حواشات علي الليثي عندما يحضرهم الليل . . أن يمضوه في منزل مخدمهم بأن يرصوا عشرات العناقريب تحت جدار الديوان الكبير وذات يوم لم ينتشر ضياؤه بعد . . استيقظت المدينة على صوت انهيار كان له دوي لم يألفوه . . فخرجوا جيمعاً من بيوتهم يستطلعون . . ما عدا سكان القسم الاول فانهم رأوا غباراً كثيفاً كالدخان مصدره منزل علي الليثي . .

وتقاطرت جموعهم الى هناك ليجدوا انفسهم وجهاً لوجه مع الكارثة . . ذلك أن الديوان الطويل العريض . . انهار على من تحته فقضي عليهم جميعاً . . وجاءت الحكومة كلها . . جميع الاداريين من الانجليز والسودانيين تتبعهم اسعافات المستشفى . . ورجال الشرطة . .

وخيل الينا في ذلك الزمان ان الشرطة انما أسست لتكون مهمتها مطاردة الصغار الذين تجمعهم اتفه الاحداث . . فما بالك بمثل هذا الحادث الذي أثر على الناس كثيراً . . نسبوه ومعه حادث البوكس . . الى غضب السماء . . فهدات الموبقات لعدة شهور . . للتوهج بعدها العبادات . . فامتلأت المساجد بالمصلين . وكذلك الزوايا . . وازدهرت ساحة بيان سيدي الحسن بالزائرات اللائي نذرن النذور . . وكلها (قهوة) . . وكانت جبنة سيدي الحسن . . من أشهر النذور في تلك الايام . . وكاد سيدي الحسن أن يكون حكراً . . أو ملكية خاصة للشايقية . . فان المادحات منهن . . وأن القائمات بامر الضريح منهن . . وأن (المولد) من اختصاص الرجال وأشهرهم في ذلك الوقت الخليفة محمد الحسن حاجب المحكمة الشرعية ويوسف الحاج سواق المدير ، والخليفة علي عمر . . وغيرهم .

كان السوق مزدهراً جداً . . اكثر ما يبيع الفرك . . وتخصص فيها النقادية . . وشنط الحديد التي تفننت في صنعها الورش وأهمها ورشة عبد اللطيف ومحمد حكيم . . والتي جعل اليهودي عبدالله سلطون والياس البني من دكانيهما مخزناً لاصحابها . . وهي جماعة لقيط القطن . . يشترون الشنطة أولاً ثم يودعون مشترياتهم اسبوعياً داخلها . . حتى اذا انتهى موسم جني القطن تسلموها وسافروا الى ذويهم . .

ثم تجارة الصيني . . وأهم معروضاتها فناجين القهوة اليابانية . . متعددة الاشكال والحجم واحد . . والملاحات . . والصواني وصحانة الباشري ثم كبابي الشاي . . وأشهر من تاجر فيها احمد رمضان وابراهيم الريح وعيسى الريح ايضاً وابو عاقله خوجلي . . ومحمد موسى عبد الناصر . .

وعندما حدث تطور علمي في أدوات حفظ الطعام والشراب . . ازدهرت تجارة الترامس . . ليبيعها نفس تجار الصيني . . اما المنطقة الصناعية الحديثة والتي فرضها التطور . فأنها أجلت السوق من كل صخب ومن كل ضجيج . . ولمع فيها اسم مصطفى ابو عموري . . ثم عثمان ابو بكر رجب الذي غير الكثير من المفاهيم فأوجد لاول مرة ثورة اجتماعية بولوجه الى الميكانيكا وهو خريج كلية غردون التذكارية . .

وعثمان ابو بكر يعود اليه الفضل . في أنه انشأ لاول مرة في التاريخ . . وفي بيته . . نادياً لطلبة الكلية . . وأسس من داخل ذلك البيت أول اتحاد لطلبة الكلية وسار على نهجه متأثراً . . محمد سليمان محمد احمد . . الذي يعود اليه الفضل في تأسيس أول اتحاد للمعلمين . . وسوف يذكر الاتحاد لمحمد سليمان أنه أول رئيس

لذلك الاتحاد .

وعثمان ابو بكر رجب يعود اليه الفضل في انشاء أول ناد (للفنانين) الهـواة وكلهم أما خـريج أو طـالب في الكلية أو في المدارس العليا .. وفي بيته ايضاً .. ففي عام ١٩٣٧ غنى ابراهيم الكاشف بالاوركسترا الكاملة التي انشأها عثمان ابو بكر .. وكان يعزف علي العود عثمان نفسه .. والكمانات محمود محمد جادين والدكتور جرجس عياد في كوستي الآن .. والدكتور عثمان الحضري وكان المهندس عبد الرحمن احمد يوسف عساكر يعزف على البيانو .. ويعزف جميع الآلات الموسيقية في ذلك التاريخ .. وبيانو عبد الرحمن اشتراه من دلالة وجده فيها مصادفة .. ولو دخلت به في مسابقة في ذلـك الـزمـان ورصـدت لـه الجـوائـز الكبـرى .. لكي يعـرفـه المتسابقون .. لما اهتدى لمعرفة كنهه احد .. الا عبد الرحمن الذي كان يعرفه الى حد العزف عليه ..

ونعود الى السوق مرة اخرى حيث شياخة محمد احمد كعوره على الصاغة .. فأن الحبوبات الآن .. عرائس الامس .. ما من طاقية ذهب تزين بها ليلة عرسهن او زمام برشمة أو بـدونها أو فدو .. أو غوايش واسورة .. وغيرها الا ودخلت فيه المهارة الفنية لاولاد مصباح .. ملوك صناعة الذهب في تلك الايام .. فقد كانوا نصف سوق الذهب وكادت صناعتـه أن تكون حكـراً لهم دون سواهم .. والصاغة يمثلون مربعاً كاملاً مجاوراً للبنك الاهلي المصري ويقع في جنوبه تماماً .. والى جانب الصـاغة هنـاك مربـع احمد البوشي .. مربـع عبارة عن دكـان أو دكان في مـربع .. مغلق الابواب كلها الا من ضلفة واحدة يجلس بالقرب منها احمد البوشي فوق عنقريب الهبابي .. ويبيع شيئاً ..

وكانت من عاداته التي ظنها الناس هواية جمع النقود المعدنية الصغيرة واكبرها ابو قرشين يملأ منها القفاف والجوالات .. فالعادة جرت أن يستبدل الناس الفئات الصغيرة من النقود بفئات كبيرة الا احمد البوشي فأنه يصنع العكس .. والحكمة في ذلك هي أنه في حالة وقوع المحظور .. كعملية سطو على ما يملك من مال سائل فأن اللص أو اللصوص لا يستطيع أن ينهب اكثر من عشرين جنيها .. فهي كفيلة بأن تهد حله ..

واحمد البوشي لا يسعى بورقة من فئة المائة جنيه ليحولها الى قروش وتعاريف .. لكنه ابتكر اسلوباً يحتاج الى صبر وأي صبر في استخلاص ايجار بيوته ودكاكينه في السوق وما اكثرها .. فهو يمر على المؤجرين يومياً يدفعون له ما يستطيعون . خمسة قروش .. ثلاثة .. سبعة وهكذا ليمر عليهم في اليوم الثاني .. ومن هنا كان لابد أن تتجمع بين يديه هذه الاطنان من المعدن النقدي . وكان شخصاً قصيراً ابيض اللون .. يرتدي زي رجال الدين حتى غطاء الرأس .. وكان يبدأ يومه بالذهاب الى النهر يستحم فيه فلم يعرف الحمام الذي نعرفه .. بانيو أو دش او طشت .. فحمامه هو النهر الخالد .. يغشاه في الصباح ويغشاه في العصر المرة الاولى قبل مروره على المؤجرين والثانية بعد فراغه من عمل يومه .. وكان هادىء الطبع قليل الكلام .. هامس الصوت .. لا تتبين ما يقول الا اذا الصقت اذنك بفمه .

نماذج وأمثلة

كان البص الابيض الذي يشبه اسعاف المستشفى والذي يتسع لاربعة وعشرين راكباً .. ويبدأ تحركه كل صباح من الحي البريطاني .. الجانب الشرقي الجنوبي ومنه حيث اسطبلات البيطري في اورطة .. رئاسة البوليس آنذاك .. وهي اسطبلات علاجية بنيت بنفس اسلوب عنابر المستشفى .. ومسئولية العلاج فيها يتولاها (حسين البيطري) الكثير الشبه من حيث القامة والجسم والزي الكاكي .. بمصطفى سعيد حكمدار السجن .. غير أن الثاني تميز برنيطته علامة المفتاحين النحاسيين .. بينما الاول .. علامة الحصان النحاسي .. الواقع أن اختصاصات البيطرة العلاجية تشمل الكلاب والابقار والحمير والجمال والاغنام .. فلماذا وقع الاختيار على الحصان دون سواه .. علم ذلك عند ربي .. ولكن ربما كان السبب .. ان الحصان الحكومي .. كان أهم ادوات الانتقال داخل المدينة عندها .. فهو مطية المأمور ونوابه .. وهو السواري التي تجوب المدينة لاغراض الحراسة ليلاً .. وهو قبل كل ذلك الحيوان الذي لا ينافسه الوجود داخل كل بيت بريطاني غير الكلب .. ايضاً هناك الجمل عند البوليس .. فهو وسيلة السفر واستخدامات آخرى ..

كانت نقطة البداية لذلك البص في تحركه اليومي هي الحي البريطاني .. فهناك يكون في انتظاره .. الساعة الخامسة تماماً .. المستر هاترسلي مدير الحقل في مصلحة التجارب .. الابحاث

الزراعية الان .. ليمر بعد ذلك على المحطات على طول شارع النيل يلتقط في طريقه المواطنين في اقسام التجارب المختلفة حتى قبة مدني السني التي فيها ختام المحطات حيث ينتظر علي سعد ومحمد الحسن محمد حسين وعبد الرحمن السناري ..

ومن الحي البريطاني حتى القبة .. يكون البص قد التقط في طريقه يوسف امين ، علي عقارب ، والكردفاني .. واحمد سليم .. وعبد العزيز احمد .. الشهير (بزفرته) ومحمد الحسن عبد الرحمن .. واحمد برير .. وعثمان الرماش .. عبدالله حامد البدوي .. مصطفى الصاوي .. عبد العال خوجلي .. وأمين حسين .. ومحمد وكامل خفاجة .. وغيرهم .. وكانت مواعيد العمل الصباحي هي السادسة .. التي ما ان تحل .. حتى يكون كل موظف في مكان عمله الذي غالباً ما يكون الغيط .. فالتجارب لا مكان فيها لعمل مكتبي غير الرئاسة .. التي يجلس على عرشها مديرها البريطاني وباشكاتبها يافت .. وأشهر الذين عملوا في التجارب من الانجليز .. المستر لامبرت .. المسمى بأسمه قطن لامبرت الذي نعرفه الان .. والدكتور كراوزر .. والدكتور جويت .. والمستر سنو .. ومستر رتلبرج .. ومستر كولاند .. والدكتور لويس .. في الحشرات الطبية يعاونه عثمان الرياش واحمد برير ..

ثم المستر دارلينج وآخرين الا أن اثنين من بين هؤلاء كانت شهرتهم تطغي على ماعداهم من الناس ..

اما المستر لامبريت .. وهو طويل القامة فارعها .. عصبي المزاج .. حاول تقليد المفتشين في المراكز ليبدوا استعمارياً من الدرجة الاولى لكنه لم يفلح ..

فالنظرة اليه .. لم تخرج عن كونه عبيط .. الكل ينظر اليه عى هذا الاساس .. فهو لا يعرف النظم العقابية في تأديب الموظفين .. ولهذا وجد نفسه مضطراً أن يأخذ الامور العقابية من زاوية اخرى .. في استخدام يده .. وعصاه أو أي شيء تقع عليه عينيه مما يمكن أن يؤلم به موظفيه وعماله ..

وكان يلازمه مثل ظله وبناء على رغبته هو .. امين حسن .. الذي تخصص في نشر نوادره .. فهو يتكلم اللغة العربية بلكنة لم يسبقه عليها اعجمي .. ولم يحدث ان خاطب احداً استطاع فهمه .. وهنا تبرز أهمية امين حسن عنده .. فهو الشخص الوحيد الذي يستطيع نقل لغة المستر لامبرت العربية .. الى اللغة العربية ..

والمدهش انه كان يراجع الترجمة من العربية الى العربية .. فيهز رأسه علامة على أن الترجمة سليمة وأن كان ما يقصده فعلاً .. ونشاط المستر لامبريت لا يتوقف عند حدود عمله .. بل قل انه من الصعب ان تفرق بين عمله وبين هواياته .. وابرزها غرامه بالتصوير .. فهو يصور كل (سفينة) صوفية .. ويصور كل زفة .. ويهتم برواكيب حلاقة الحمير في السوق الجديد .. وبعمال اللقيط وسيرة العرس أو الطهور .. ومن بعيد موكب الجنازة من المدينة الى المقابر .. ويصحب معه امين حسن في كل نشاط يقوم به ..

عاش بين الذين التقى بهم عبيطاً .. وكان اشهر عبيط في تاريخ المدينة .. ذلك لانه انجليزي .. وبعد عشرات السنين اكتشف الناس .. انهم هم العبطاء .. وان المستر لامبريت العالم العبقر البحاثة عاش في اقتصادهم كاجود واغلى استنباط لشجرة قطن

في اكبر مزارع القارة الافريقية .. وواحدة من اكبر مزارع القطن في العالم ..

اما المستر رتلبرج .. فهو اسكتلنـدي صارم .. ليس مـع السودانيين وحدهم وانما ايضاً مع الانجليز .. فهو لا يختلط بهم .. انه عاكف على مصاحبـة الصقور والثعـابين .. فهـو يربي الاولى ويدربها على القنص والصيد .. ويحتفظ بمجموعة كبيرة منها ..

اما الثانية فهو متمرس في طرق صيدها واساليب اكتشافها .. يساعده محمد عبد الهادي .. وابراهيم .. حيث يضعانها بعد صيدها حية في برطمانيات زجاجية مليئة بسائل الفورمالين .. وكانت من بين واجباتهما (تصبير) الطيور على اختلاف اشكالها ..

انضم اليهما فيما بعد قائداً لعملهما احمد السيد الـذي جاء منقولاً من متحف التاريخ الطبيعي بالخرطوم .. وكانت الـظاهرة الملفتـة للانـظار ان جميع ركـاب ذلك البص .. يحملون اعمـدة طعامهم بما فيهم المستر هالزسلي .. الذي يحمل معـه (ترمس) الشاي أو القهوة .. ولفة ورق فيها فطوره .. وكان يحتل المقعد الامامي في البص دون مشاركة من احد كنوع من التمييز لانـه بريطاني .. ومع ذلك فأن النظرة اليه تختلف عن النظرة لرصفائه من الانجليز ..

ففي ظن الناس آنئذ انه انجليزي مضطهد بين اهله وذويه من بني جلدته .. بدليل ان بيته وسط بيوتهم اقلها درجة .. وأن لم تخصص له سيارة .. ولا يرتاد (ودمدني كلوب) أو ميدانه للعب التنس .. وليس عنده خيل الا من ربة الحقل التي خصصت للعمل في الغيط وحده وتتحرك بأذن من الرئاسة تلى شهرة المستر لامبرت والمستر رتلبرج .. شهرة اخرى شملت الباشكاتب يافت .. وسعد

الدين يس .. حسن عدلان .. اما الاول فهو مقصد الباحثين عن العمل .. يتصيده اولياء امورهم اينما امضى عطلة نهاية الاسبوع ..

وكان انساناً .. وكان صاحب مرؤة ومرونة وتواضع لا يشبه من يتولون مثل منصبه في تلك الايام .. فهم في مجموعهم انصاف آلهة .. لكنه بينهم كان (البشر) الوحيد الباشكاتب معظم الذين امتلأت بهم المعامل والحقول والمكاتب من موظفين وعاملين .. جاء تعيينهم بقرار منه ..

ولهذا كان الناس يذكرونه بخير دائم .. اما سعد الدين فهو صاحب الكنتين الذي يتعامل معه كل (التجاربيين) في قضاياهم الحياتية من مآكل ومشرب وجاز وصابون وسكر .. ماعدا الانجليز كل الانجليز ..

فانهم يشترون احتياجاتهم من (ابو شمس) وكوستاريدس .. وجوانجو .. اما حسن عدلان فهو كبير المراسلات في قسم الحشرات النباتية .. لكنه كان شجاعاً وجريئاً ومقتحماً .. لا يخشى الانجليز بل أن بعض الانجليز يخشى حسن عدلان .. فهو لا يعمل الا مع مستر زقلبرج .. مع مواهب كثيرة . أولها انه يصون (الرشاشات) المستخدمة في عمليات رش الحقول بالمبيدات (السبريارس) ويقوم بلحامها عندما تتعرض للثقوب ..

ويحاول على مرآى من كل الناس ذلك الرجل الذي يصدر التعليمات فقط و لا يناقش .. المستر رتلبرج .. بل احياناً يرتفع صوت حسن عدلان في مواجهة المستر رتلبرج .. ومع حدته تلك .. فانه كان انساناً طيباً .. كلمة ترضيه .. وكلمة تغضبه .. نزاع الى خدة الاخرين .. وكأنما خلق لها

اما البص نفسه .. وبداخله الموظفون من سكان ودمدني

الـذين يعملون بالتجـارب .. وبقية المـوظفـين والعمـال مكـانهم التجارب نفسها حيث يعيشون ويقطنون ..

فـان الحـديث بـداخله لا يخـرج طـوال العـام عن اربعـة مـوضوعـات . الاول العمل وحكـاياتـه ونوادره .. والثـاني كـرة القدم .. وابطال الحديث فيها عبد العزيز (بزفرته) قطب نادي الاتحاد .. ويوسف امين لاعب الكرة الكبير واحد اقدر الحكام في تاريخ التحكيم وعلى عقارب احد اشهر لاعبي النادي الاهلي .. اما ثالث الموضوعات فكان المستر لامبرت .. ويقطنها سكان التجارب وسكان ودمدني (اللامبرطي) وبطلها على الدوام امين حسن .. مرافقة ومترجمة من العربي الى العربي ..

اما الموضوع الثالث هو فكري بحت .. يحسن التحدث فيه محمد الحسن محمد السيد الذي لا يفارق الكتاب يده والتجارب عالم قائم بذاته .. والامبرطي عالم قائم بذاته ايضاً .. ولولا تعبيراته العربية التي اخترعها هو تنحرف بمـدلولات مـا يقصد .. كثيـراً لرويت بعضها .. لكنها لا تروي ..

في ميدان الملك . . !

تمتاز ممتلكات الحكومة الاكثر اهمية في ودمدني بانها تقـع في مقابلة النيل مباشرة . . مثل الخرطوم وعطبرة . . واهمها مبنى المديرية والمركز . . والبوستة . . ثم المحكمة الشرعية . . حتى الجامع الذي يحمل اسم الحكومة موقعة هو ايضاً في مقابلة النهر العظيم . . وحين تتجـه شرقـاً نجد مسـاكن الانجليز واهمهـا واكبرهـا منزل مـدير المديرية . . وهو منزل مع مجموعة من المنازل لا تمثل الا اقلية . .

انحرفت قليلاً عن الشارع المطل على النهر . . وتمتاز تلك العقـارات وبخاصـة دواوين الحكومـة بميادين مخضـرة رائعة ذات مساحات متساوية تقريباً في جنوبها . . وكذلك مساكن البريطانيين ذات الحدائق الواسعة المعتني بها يومياً . . وتمتاز ايضاً المساكن . . بمبانيها من المونة الحرة . . مع الطوب الاحمر المكحول المحصورة في شكل هندسي جمعها كلها غرفاً وبرندات ومنافع حتى لتبدو وكأنها قطعة واحدة . . تحيطها من جميع الجيهات نمليات تحمى من بداخلها من البعوض وبقية الهوام والحشرات . . اما اسقف البرندات فكلها من القريد الاحمر المائل . .

كان ميدان مبنى المحكمة الشرعية قد اختير لاقامة المناسبات الـرسمية عـلى ارضه . . ونجـومها عـلى مر السنـين هم تلاميـذ المدارس . . الاولية والمتوسطة . . ثم الاندية الرياضيـة واصحاب الحرف . . حيث يتنافسون على الفوز بسباق المائة ياردة . . والجري من داخل الجوالات . . ورمى الرمح . . والقفز العالي والى غير ذلك

من الالعاب . .

وكانت الاحتفالات تصل ذروة بهجتها عندما تصادف المناسبة الرحلة السنوية التي تقوم بها كشافة المدرسة الاميرية الى غابة ام بارونة . . اذ اعتاد الشارع وداع الكشافة في رحلتها تلك الى (نا معسكر) المقام بالغابة بأن يصطف اهل المدينة على جانبي الطريق يحيون الكشافة التي غالباً ما يسير خلفها الاطفال حتى نهاية شارع الزلط حيث يدلف الموكب الكشفي الذي تتقدمه موسيقاه من ترمبيته وصفافير وخطوات تنظيمية من افراده . . وكانت تلك الرحلة تجد من عناية القادرين من المواطنين الشيء الكثير من العون الغذائي وكان ابرز اولئك القادرين . . الشيخ ابو زيد احمد والشيخ احمد الحضري والشيخ علي الزبير . . كان الاول يدفع الى جانب المال ، الذبائح وكذلك الثاني ، اما الشيخ علي الزبير فانه لا ينسى ان يقدم جوالات البلح والحلويات . . وبالمال كان يشتري السكر والشاي لاستهلاك اليوم ولحفل الختام الذي يحضره في العادة مدير المديرية .

وجاء يوم الاحتفال (يوم الملك) الذي قد يكون عيد ميلاده والملك هو ملك بريطاني العظمى . سيدة البحار والامبراطورية التي لا تغيب الشمس عن ممتلكاتها . . والتي كنا ننحاز اليها انحيازاً تاماً ضد كل العالم . اعجاباً بالخريطة التي ندرس عليها وقد صبغ معظمها باللون الاحمر وهي ممتلكات التاج . . وبينها درة جواهر ذلك التاج ، الهند . . وكنا نعجب بالانجليز للعزلة التي يعيشون فيها بعيداً عنا وتعجب ايضاً بنهجهم في الحكم . . وفي السلوك وفي حسن التصرف اما المشكلات . . فقد كانوا تيًا مختاراً من خريجي كمبردج واكسفورد . . وذلك مما تعلمناه متأخراً وكنا نظنهم غير ذلك .

جاء يوم الملك اذن وهو يوم عطلة رسمية واحتفال رسمي يشترك في مسابقاته المتنافسون من التلاميذ والحرفيين والرياضيين في الاندية الكبرى . . وتوزع فيه الجوائز على المتفوقين . . والميدان سمي بأسم الملك صاحب الاحتفال . . فكان هو مكان الاحتفال . . وقد نصبت السرادقات في طرفه الغربي . . وخطط بداخله بالجير الابيض تمييزاً لانماط الالعاب المختلفة ومساحاتها .

واحيط الميدان بالاعمدة الملونة ومعظمها يخص خيمة الحكومة في المولد النبوي الشريف . . وازدادت بقطع القماش الملون الذي يربط بين الاعمدة كلها كاسلاك اعمدة الكهرباء وكان يطلق عليه أسم الحمام . . واما السرادق صفت الكراسي . . في الصف الاول كراسي الجلوس بينها ابرزها كان لمدير المديرية . . ومن حوله الاقل شأناً لكبار الضيوف من الانجليز ثم السودانيون على الكراسي الخيزران وهكذا الى ان نصل في اخر الصفوف الى كنبات تلاميذ المدارس الاولية . . وعلى الارض امام المدير مباشرة فرش السجاد الاحمر زاهي الحمرة . . ونصبت المناضد الكبيرة التي سوف تحمل ، (غداً) هدايا الفائزين . .

في الجانب الاخر . . كان جماعة من الفتية ممن يعملون في الحقل الوطني يقضون امسيتهم كمعظم امسياتهم حديث في السياسة الحزبية لا ينقطع . . وفي الحض على كراهية الاستعمار . . كانوا يتجمعون في نادي حزبهم ذاك بعد الثامنة مساء . . وبعد أن يغشوا انديتهم الرياضية في المساء المبكر . . وفي حوالي التاسعة والنصف يتفرقون الا من جماعة هي في واقع الامر شلة لم تختلف في رأي أو هوي . . أو مشرب . . وكان يعرف في معظمهم جرأة نادرة وعدم مبالاة وقدرة على اقتحام الصعاب . . مهما كانت . . خرجوا من ناديهم حوالي التاسعة والنصف واتجهوا الى السوق . . ومنه الى

ميدان الملك . . ومنه عمر محمد عبدالله ، دفع الله حسين ، وحسنين بابكر النصيري . . ويس سليم . . ومحمد عبدالله موسى . . وغيرهم . .

جلسوا في قلب الميدان . . ثم طرأت على احدهم فكرة اغراقه لابطال يوم الملك كنوع من الجهاد ضد الاستعمار . . ولانهم لا يختلفون في العادة . . سرعان ما انتقلوا الى وضع الخطة . . وتوزيع الادوار ثم شرعوا في التنفيذ . .

كانت الترعة الرئيسية التي تروي كل الميادين الحكومية وحدائق بيوت الانجليز تقع في نهاية الجانب الشرقي من ودمدني وفي محاذاة مصلحة الري المنعزلة بعيداً عن المدينة وليس ابعد منها غير غابة ام بارونة والغابات في ودمدني ثلاث . . ام بارونة . . وعترة في مشرع ابي حراز . . وغابة النيم وهي خاصة بالابحاث الزراعية المعروفة بأسم التجارب . . وكانت الخطة أن يقوم الفريق بسد مداخل الماء الى الميادين . . وهي المداخل المتفرغة من المجرى الرئيسي . . بحيث يتوحد اخر الا ولا يصب الا في ميدان الملك مكان الاحتفال . . وتم اغلاق الفتحات الموصلة لكل الميادين وتوحد المجرى وفي الشارع الموصل الى بيت مدير المديرية ومن الترعة الرئيسية الثانية . ازال يس سليم ومحمد عبدالله موسى الحجارة الكبيرة التي كانت تشكل سداً ضد تدفق المياه في اتجاه ميدان الملك . . والميادين الاخرى التي تقع في طريقه . . واندفعت المياه قوية سريعة هادرة اول الامر . . لتنساب بعد ذلك في سرعة هادئة على ايقاعات نبض قلوبنا الاكثر سرعة . .

وقصد الجميع متفرقين الى منازلهم . . وكان القسم الاول وام سويعة والبشير . . والنضيراب . . والمدنيين . . واستيقظت المدينة

صباح يوم الاحتفال لتجد نفسها وقد تحول قسم كبير منها الى حي في مدينة البندقية الايطالية .. غـرق ميدان الملك عن آخـره .. وغرق مبنى المحكمة الشرعية .. وجانب كبير من السـوق معظم المنطقة الجنوبية منـه .. المقاهي عبـدالله ابو لبـدة والامين وعـلى بـوزمات .. والمـطاعم واشهرهـا مـطعم شعبـان للفـول والنـادي المصري .. وخيم على المدينة جو عصيب نشطت قوات البوليس .. والسري بوجه خاص .. وكان الوجوم قد رسم خطوطه على كافة الوجوه .. مفتش المركز وكومندان البوليس ومساعد المفتش وضباط البوليس وبعض المشائخ .. وجميع القائمين بأمر الاحتفال .. وكانت الاصابع كلها تشير الى الفاعلين الحقيقيين .. لكن لا يستطيع احد ان يقدم دليلاً ..

وتغيرت احاديث المجالس .. كل المجالس الى اسابيع .. عن تلك الهزيمة التي مني بهـا الاستعمار في واحـدة من معاركـه مع الوطنيين ودخلت الحادثة تاريخ النضال الوطني ولو من باب سهر الجداد ولانومو ..

ودار عام .. وجاءت مناسبة الاحتفال بيوم الملك .. نفس الشلة .. تتجه الى الميدان قلب الميدان وبعد زورة للسوق .. في التاسعة والنصف مساء .. ثم لا يمضي كبير وقت حتى تطرح قضية اغراق الميدان للمرة الثانية .. اسوة بما حدث في المرة الاولى ..

ويـدور نقـاش مختلف هـذه المـرة .. فتختلف الشلة لاول مرة .. ذلك ان احـد اعضائهـا افتى بأنـه يحس برقـابة شـديدة عليهم .. حتى أنه ليحسها في جلده .. على الرغم من انه لا يجد اثراً مادياً لتلك الرقابة .. مضيفاً الى ذلك .. ان الحكومة ليست بالغفلة التي تتصورها الشلة .. فهي تتوقع ما نفكر فيه ولهذا وجب

الحذر بأن نترك ما نحن فيه من تفكير . . وهبت عاصفة من محمد عبدالله موسى. . تفرق بعدها الجميع الا منه ومن يس سليم . . اسراً على تنفيذ عملية اغراق الميدان . . وفي صباح اليوم التالي . . كان بعض من اعضاء فريق الامس قريباً من الميدان ليجدوه على حالته في الايام الماضية لا اثر لماء او بلل فيه . . وكل شيء على حاله الخطوط الجيريه البيضاء . . النصيوان . . الكراسي . . الاعمدة الخشبية الملونة . . والحمام من حولها يتطاير مربوطاً على حبال التيل الرقيق . .

وسمعت المدينة كلها بأن محمد عبدالله موسى ويس سليم اعتقلا ليلة امس متلبسين بمحاولة فتح مياه الترعة الرئيسية لاغراق ميدان الملك . . وانهما بالحراسة الان . .

ويروي فيما بعد . . بعد المحاكمة يروي يس سليم قصة القاء القبض عليه وعلى زميله محمد عبدالله موسى فيقول انهما اتبعا نفس اسلوب العام المنصرم . . اغلقا المداخل . . وعندما وصلا الى الترعة الرئيسية وقف يس لمراقبة الطريق بينما هبط محمد عبدالله موسى الى الترعة يريد ازالة الصخور عنها مزيلاً السد الذي يمنع اندفاع المياه . . وما ان هم بازالة الصخور حتى هبط عليه من فوق الشجرة نفر من رجال البوليس بزيهم الرسمي وما هي الا لحظات حتى وصل الضابط وتولى التحقيق . . قال موجهاً خطابه لمحمد عبدالله ماذا تريد ان تفعل : قال اتوضأ لتأدية الصلاة . . وقضت المحكمة بالسجن عامين لكل منهما . . وفي اقصر محاكمة لم تستمر ٤٨ ساعة من لحظة الاعتقال حتى دخول السجن .

شخصيات استأثرت باللمعان

تلك ايام لن تنسى .. ايام ان اجتمع فيها عدد من المواطنين السودانيين في مدينة ودمدني من اماكن متفرقة من البلاد كان معظمهم من ابناء العاصمة .. القاضي الجزئي محمد احمد محجوب الذي وجد فيها المحامين اميل مرعي قرنفلي واحمد خير وزيادة عثمان ارباب .. ثم ناظر مدرسة النهر الاولية .. عبدالله شوقي الاسد .. فمدرس المدرسة الاميرية الوسطى الصائم محمد ابراهيم .. والعامل القضائي مبارك المدني .. وقاضي الشريعة مجذوب كمال الدين .. وعدد من الموظفين المرموقين الذين سرعان ما أثبتوا فاعليتهم في النشاط الثقافي والاجتماعي في أندية المدينة ومجالسها الخاصة .. الدرديري الفيل .. محمد عمر الشريعة .. محمود عجوز .. عمر عصملي .. الشيخ موسى محمد الامين الضرير .. ابو المعالي عبد الرحمن .. كامل ابو سيف .. محمود احمد خليفه وناظر المدرسة الصناعية كمال الجاك .. ويوسف حامد ومحمود تلابيش .. ومحمد حاج حسنين خفيف الظل الساخر في جدية .. والجاد في سخرية .. اللماح السريع البديهة .. الموجود في كل الاندية والمجالس فقد تفرد بمواهب لم تتوفر لغيره .. وكان أنشط الجميع ميرغني حمزة الذي انشأ جمعية للبحوث تحلق حولها ، الهادي احمد يوسف ، وابراهيم مصطفى شرف الدين .. وسليمان احمد سليمان .. ويوسف محمد عبدالله الكارب .. ومحمد جاد الكريم وآخرون ..

استقرت آخر الامر في نادي النيل الرياضي وكانت تجتمع اسبوعياً لمناقشة كتاب كلف احد الاعضاء بقراءته نيابة عن

الاخرين . . والى جانب هؤلاء كان حسن عمر الازهري . . الشهير بابن عمر يتولى التدريس في المدرسة الاميرية الوسطى . . والتجاني عامر مفتش الصحة الهادىء الطبع . . والمثقف الذي تقبله جميع المجالس . . مجالس الصفوة ومجالس الغبش . . فهو من يثقون في حكمته عند اشتجار الخلاف . . ومن يثقون في ادارته لعمليات الانتخاب . . كبرت أو صغرت . . وهو اديب وشاعر واجتمع نفر كريم من مواطني السودان في ودمدني غير هؤلاء وبخاصة هيئة التدريس في حنتوب الثانوية . . .

من بين هؤلاء كان شوقي الاسد امة وحده . . كان قبيلة متحركة . . فهو عملاق ضخم يتمتع ببشرة في لون الماس . . عبارة عن تل بشري يمشي على ساقين . . يرتدي الجبة والقفطان والحزام . . والطربوش المغربي . . كان أول الدروس التي حرص على تلقينها لتلاميذه ان اسمه لا يعني (الاسد) ملك الوحوش وانما الاسد بمعنى المغلق او المقفول . . وكان يحرص على حمل عصاة مكسوة بالجلد . . وهي من الصلب . . وكثيراً ما اختبر قوة تلاميذه الجسدية حين يقدمها لهم طالباً منهم حملها . . وكان البعض ينجح والكثيرون يخفقون . . ثم تنتشر الشائعات الصغيرة عن وزن تلك العصا . . فمن قائل انها قنطار ومن يجزم بانها طن . . لكن الذي يبقى دائماً هو أن شوقي الاسد هو اقوى الرجال . . فاذا وصف الناس بأنهم طيور فإن شوقي الاسد بينهم هو الرخ الاسطوري في الف ليلة وليلة . . . حين يمشي في الشارع تسمع خطواته السريعة المنتظمة ما يشبه الدوي . . الهواء يداعب قفانه بعنف . . حتى ليخيل اليك انه شراع لمركب اخطأت الطريق من النهر . . الى شارع الزلط وكان جاداً . . وكان صارماً . . لكن ذلك يخفى تحته خفة ظل لا تجاري . . ونكتة في طرف اللسان . . ومعظم نكته عن نفسه . . ويستطيب دائماً أن يروي ما يعتبره نكتاً مصرية وجهت

امامه من القاهرة . يقول انه حين يسير في الشارع كان المصريون يغنون ياوابور قولي رايح على فين . . وحين يركب الترام يكون قبلة انظار الاطفال . . والنساء . . حتى إن احداهن عندما تركب الترام في المحطة التي تريد نظرت اليه في دهشة وقالت صحيح مصر بلد العجائب وكان شوقي الاسد يفاجىء الناس مرتين في الاسبوع حين يخب في شوارع المدينة مرتدياً الشورت الابيض وفي يده أو تحت ابطه مضرب التنس . . فقد كان لاعب تنس لا يشق له غبار . . خفيف الحركة سريعها . ثم كان حكمًا لكرة القدم تسند اليه اداره المباريات الشائكة . . ويوم يحكم مثل تلك المباريات تكون شرطة حفظ النظام في اجازة . . فشوقي الاسد هو اعظم ضامن لهدوء المتبارين والمتفرجين مهما كانت احكامه . . وكثيراً ما عطل المبارة للحظات ريثما يدع احد المتفرجين أو بعض المتفرجين لكنه في ذات الوقت كان يطرب للتعليق الذكي عى احكامه داخل الملعب . . وحين فتح باب التطوع في صفوف حلفاء الحرب العالمية الثانية . .

كان شوقي الاسد طليعة المتطوعين . . وظهر بزي جديد هو الكاكي . . وكان فخوراً بأنه لاعب شطرنج ماهر . . وكان تلاميذه في مدرسة النهر الاولية وكل التلاميذ في المدارس الاخرى . . يحسبون لشوقي كل حساب . . كان كتلة من النشاط وطاقة جبارة وهب كل وقته وصحته . . وجهده للمدرسة وللتلميذ منهجاً في التعليم ونهجاً في التربية . . وانتهى به الامر أن يكون مشاركاً في حرب فلسطين ١٩٤٨ واعظاً للكتيبة السودانية في البداية . . ثم بكباشيا في نفس الكتيبة . . عشق العسكرية . . والتحق بها بعد الاربعين من عمره . .

وسبق وصول شوقي الاسد الى ودمدني منقولاً اليها ناظراً لمدرسة النهر الاولية ان كان عبدالله ابو الاجمار كاتب العرض حالات

هو الخطاط الوحيد في المدينه .. كان يخط لافتات السوق .. والحكومة وشواهد القبور المصنوعة من الصاج .. وكان يقرض الشعر .. ويهتم بالادب عموماً وكان يصحب مكبه الفني على ظهر حماره اينما تنقل .. وجاء شوقي الاسد وكان خطاطاً اكتشفه اولا تلاميذ مدرسته عندما بدأ بتغيير لافتات الفصول في المدرسة .. ومكتب الناظر ثم مكتب المعلمين .. واختار لونين تميز بهما خطه .. فاينما وقعت عيناك على قاعدة سوداء خطت الكلمات فيها باللون الاصفر .. فاعلم أن فنانها هو شوقي الاسد .. ثم انتشرت خطوط شوقي الاسد لتصبح موضة .. ولتكون خطوة متقدمة في هذا الاتجاه .. اتبعها بكتابة لوحات تحمل بعضاً من اي الذكر الحكيم مما ازدانت به غرف الاستقبال في البيوت .. وكان لا يخط حرفاً في شاهد قبر الا اذا كان الميت حياً بين الاحياء على الرغم من رحيله .. وكان لابد والحال قد تبدل بالنسبة لابي الاجمار من أن تنشب حرب صامتة هي صراع ازلي بين القديم والجديد .. ربحه بطبيعة الحال الجديد .. والذي جاء بعده جديد في اثر جديد والدنيا تسير الى الامام .

وتنافس اخر دخل فيه شوقي الاسد .. وهو تنافس غريب .. اذ شاع ولعلها حقيقة .. انه رجل اكول جداً .. يستطيع بعد تناول وجبة العشاء .. ان يلتهم صينية باسطة كاملة .. وشهد له باكثر من واقعة التهام صينية باسطة اكثر من شاهد عيان ممن لا ترقى اليهم الشكوك .. والدخول معه في مغالطة حول الموضوع مكلف جداً .. اذ عليك ان تدفع ثمن الباسطة .. وعليه هو ان يلتهمها .. الى ان جاء يوم وفي ثقة بالنفس وتواضع شديد .. قال الصايم محمد ابراهيم ان شوقي الأسد لا يأتي بمعجزة عندما يأكل صينية باسطة بعد العشاء .. انه هو شخصياً

قادر على هزيمته في هذا الميدان . . واستهجن اصحاب العقول مقولة الصايم تلك . . . لأنهم وازنوا أولاً بين حجمه وحجم منافسه . . حيث لا مكان لمقارنته ولكن يروي الـراوون . . ان المنافسـة قد عقدت بين الاثنين . . وكانت عفيفة وصاخبة . . وانتهت بهزيمـة نكراء لشوقي الأسد . . الذي علق بقوله وهـو يهنىء الخصم . . تأكل أكل السوسة والعافية مدسوسة والواقع ان عافية الصايم محمد ابراهيم لم تكن مدسوسة فهو قوي الجسد مفتول العضل .

كان ينازل في الطريق العام بعض فتوات ذلك الزمان ممن يفرضون أتاوات على بعض التلاميذ المتريشين وإلا كانت العلقة في انتظارهم . . وفي أيامه في مدرسة وادمدني الأميرية الـوسطى . . انقطع دابر اولئك الرباطين من قطاع الطرق . . كان الصايم يؤدبهم بيـده . ثم يسلمهم للبوليس . . وتعلم منـه ابناءه التـلاميـذ . . الصدق والشجاعة والجرأة وقولة الحق . . وهو مع ذلك كله ارتفعت هامته جداً في نظر تلاميذه . . بعد الهزيمة التي انزلها بالعمـلاق الأسطورة . . شوقي الأسد . .

يوسف أبو الروس

من شخصيات المدينة الظاهرة جداً . . والتي من المستحيل اغفالها . . يوسف ابو الروس التاجر الأنيق . . الذي يركب السيارة . . ويقودها بنفسه . . وهي آخر الموديلات . . يرتدي أفخر الملابس . . العمامة بيضاء ناصعة البياض . . ملفوفة بدقة وجمال لا يجاريه في طريقة لفها من يرتدون العمائم . . الجلباب ابيض دائماً . . وأحياناً يلف وسطه بحزام من الكشمير . . ومعظم الأحايين يتخفف فيها من ذلك الحزام . . اما الفرجية فهي من الفريسكا واليوبتش صيفاً . . والصوف الاسكتلندي أيام الشتاء . . ألوانها زاهية . . يميل الى اللون الواحد . .

علاقاته الاجتماعية واسعة جداً . . وجيدة جداً . . ايضاً . بادي الذي تضبط عليه الساعة عند خروجه الى السوق وعودته منه . . سلوكه يعتمد الصرامة والجدية والصدق والأمانة في المعاملات يشاركه في تلك الصفات بدوي الكردي .

وكان ذلك حال التجار في واد مدني . . في تلك الأيام . . التجارة عندهم شرف . . والتجارة عندهم صدق . . والتجارة عندهم أمانة . . فهي تجارة ربحها حلال . . ما اكتسبوا مالاً كان لهم ولأسرهم فقط . . وانما اصاب منه الفقير والمعدم والمحتاج . . أفادوا بالكثير منه للمجتمع من حولهم . . وكان ابرز النشاطات التي يتجه اليها ذلك المال . . هي جانب التعليم . . وفي مساقية آنذاك . . الديني والأكاديمي . . كانت المدينة حينما يختطف الموت

واحداً من عمالقتها من أمثال هؤلاء في ذلك الوقت تشعر بيتم جزئي . . يحسه سكانها جميعاً . . .

كانت مشكلات الناس مهما عظمت لا تصل الى الشرطة أو القضاء . . كان يحلها الكبار . . شيخ آدم . . الفكي قسم الله . . أبو عاقلة خوجلي . . كرار النور . . محمد عبد الرحمن نقد الله . . محمد سعيد ابراهيم عمر . . وغيرهم . . وكان في مقدمتهم جميعاً (اليمباشي) احمد عبد الوهاب البحيري الضابط القديم والمفتش القديم . . ورئيس المحكمة الاهلية ومقرها المركز . . كان حريصاً على ارتداء البدلة كاملة . . مشيته عسكرية لم تفارقه ابداً . . وهو في الطريق من بيته الى المحكمة . . كان يستمع ويحقق ويقضي في المشكلات التي لم تصل المحكمة بعد . . وكانت كلمته فاصلة لا تقبل استئنافاً . . وكان حريصاً على الاخلاق العامة . . يلجأ الى الستر حتى اذا تعارض مع القانون . . فقانونه غير مكتوب لكنه متوارث عن الأقدمين . . .

فريق الوادي . . القناة الرياضية الثالثة لنادي النيل رأت أن تجرب حظها في النشاط المسرحي ، بأن تستقدم فرقة من أم درمان . . واجرى رئيس الفريق . . الحاج يوسف عبد الرحمن اتصالاته مع المعنيين في العاصمة الوطنية وجرت مفاوضات في واد مدني بين الفرقة المسرحية وكانت لشخص اسمه ابو العباس . . وبين ادارة فريق الوادي انتهت بإبرام عقد يضمن لصاحب الفرقة نصف الدخل . . واخذ بعد ذلك المسؤولون عن الفريق يحضرون ليوم عرض المسرحية على خشبة مسرح نادي النيل الرياضي . . .

طبعت الاعلانات وطبعت التذاكر . . وجهز المسرح . . ووزعت المسؤوليات . . ولاحظ فريق الوادي أن المدينة لم تبدِ ترحيباً

بالعمل الذي يستعدون له .. فالناس انصرفت عن شراء التذاكر مقدماً .. وبخاصة السوق .. وتجار السوق الذين اعتادوا المساهمة في مثل ذلك النشاط على الرغم من انهم لا يشرفونه بالحضور .. حتى طبقة تجار نادي النيل احجمت عن الشراء .. وقررت لجنة الوادي ، في جلسة مشتركة صاخبة مع قائد الفرقة المسرحية انه لا بد من دعم المسرحية بمطرب يغني للناس بين فصل وفصل ...

وحدث الخلاف وكان لا بد له ان يحدث .. فرئيس الفرقة ابدى اعتراضاً على فكرة الاستعانة بمطرب لأن ذلك ليس موجوداً في العقد لكنه لا يمانع اذا التزم الوادي بأن يكون أجر المطرب من نصيبه هو من الدخل ..

وكان من الطبيعي ان يرفض الوادي العرض واختار صاحب الفرقة المسرحية مطرباً بعينه .. سماه بالاسم .. وكان مغموراً في ذلك الوقت .. وهو احد أكبر وأروع المطربين الشعبيين اليوم ... المطرب الفنان الكبير .. صديق الكحلاوي .. لكن السيف سبق العزل .

اذ اتصل ابو العباس بالكحلاوي واتفق معه على الحضور وقد حضر بالفعل واشترك في الاجتماع بين الطرفين .. وكان نبيلاً كما هو الآن .. ابدى استعداداً ان يغني بلا مقابل .. غير ان نبله ذاك .. قوبل بجحود ما زال صاحب الجحود فيه حزيناً ونادماً على فعلته التي ظلت تؤرقه طوال السنين ..

واقترح صاحبنا الجاحد ان يكسر كل تقليد بأن يجعل من تعتلي خشبة المسرح .. مطربة وليس مطرباً .. ولم يجد من يتفق معه في شطحته تلك .. ذلك ان التقاليد لا تسمح .. والمجتمع لن يتسامح .. لكن صاحبنا اصر . واستطاع آخر الأمر أن يقنع

زملاءه بمطربة . . هي عائشة الفلاتية . . وكان اقتناعهم بفكرته ليس اقتناعاً حقيقياً بقدر ما هو اقتناع قائمٍ على رفض مؤكد من الفلاتية للفكرة . . لأنها تخشى ان تلعب دوراً غنائياً لم يألفه المجتمع وبالتالي لن يرضاه أو يغفره . . واذا جاز لها ان تقبل . . فإن اجرها سوف يكون عالياً . . واذا لم تغالِ في الأجر فإن سلطات الأمن سوف تتدخل في آخر لحظة تمنع ذلك الغناء من المسرح . . لمطربة وأمام الجماهير . .

وجرت الأمور بعد ذلك على غير ما كان يشتهي المقنعون بغير اقتناع . . . فالتفاوض مع الفلاتية لم يستغرق إلا بضع ساعة . . إلا ان المبلغ الذي اتفق عليه كان كبيراً جداً . . قالت انها ستقدم الأغنية الواحدة بسعر خمسة جنيهات . . ولما كان الأجر مبالغاً فيه فإن الاتفاق نص على اغنيات ثلاث . . .

وعقد اجتماع جديد فرضته ظروف جديدة . . ولام الاجتماع باجماع لاراء صاحبنا الذي ورطهم تلك الورطة التاريخية . . كيف يستطيعون تنفيذ ذلك الاتفاق . . وفيه من التبذير في الاتفاق ما جعل اجر المطربة هذا المال الكثير والذي استلمت مقدم اتعابها ثمن اغنية واحدة خمسة جنيهات وبقيت على ذمة فريق الوادي عشرة جنيهات اخرى . . ومضت الساعات بطيئة لتمتص ذلك السخط . . لتعقبها ساعات نشيطة متفائلة زاد من روعتها ان السوق وغير السوق استجاب بسرعة للاعلان عن المسرحية عندما وضع اسم عائشة الفلاتية الى جانبها . . ونفذت التذاكر قبل يوم من العرض . . مما استدعى طبع تذاكر جديدة . . وتأجير مقاعد جديدة . .

وفي اليوم الموعد كان ميدان النجيلة الذي يشبه بساطاً فرش في مدخل النادي . . اشبه بيوم الحشر . . وكانت ساحة نادي النيل

من الداخل لا تقل ازدحاما عن المدخل .. وبدأت المسرحية التي أوقفها المتفرجون من الداخل ولم تمض دقائق على بداية الفصل الأول فيها مطالبين في هياج بعائشة الفلاتية .. وغنت الفلاتية .. وكسر بعدها الباب الخارجي .. وتدافع الناس بالعشرات وبالمجان الى داخل النادي وافلت زمام الانضباط والأمن فقد اختلط الحابل بالنابل .. وعمت الفوضى فتدخل البوليس بعنف زاد عما عرف به في تلك الأيام .. ذلك ان البوليس نفسه من كلف بالمهمة ومن لم يكلف جاء الى المسرح لأنه يريد ذلك فهو بشر أولاً واخيراً قبل أن يكون رجل نظام .. وانتهت الاغنيات الثلاث .. وطالبت الجماهير بالمزيد .. ولكن الفلاتية طالبت باتفاق جديد ولم تستغل الموقف .. لم تطلب في اتفاقها المجدد إلا نفس السعر خمسة جنيهات للاغنية .. ولما كان الموقف المالي مطمئناً هذه المرة .. فقد غنت ثلاث اغنيات اخرى .. وحصلت في تلك الليلة على اعلى اجر عن الغناء حصل عليه مجموعة من المطربين مجتمعين في ليلة واحدة ..

غير ان جماعة الوادي .. والمسرحية لم تعرض قدموا لرئيس الفرقة ما يساوي مصاريف السفر من والى أم درمان واضافة خمسة جنيهات اخرى .. ليكون المبلغ كله أقل من عشرين جنيهاً .. لكن رئيس الفرقة رفض وأصر على مناصفته في الأجر .. وطالب بمراجعة الحسابات وهدد باللجوء الى القضاء ... لكنه خسر قضيته .. ولم يقبض إلا اجر السفر .. وكان دخل الليلة مذهلاً .. طمع فيه النادي الأب .. النيل الرياضي .. فهو زاد عن دخل ثلاث مباريات نهارية بين أي من العمالقة الثلاثة .. النيل .. الاتحاد والاهلي ..

ورئيس الفرقة المسرحية يتابع عن بعد تصرف أولئك الصبية

الذين يحميهم نادي النيل . . واخذ يراقب سلوكهم الى ان جاء يوم رأى الفريق ان يحتفل بنجاحه ذاك . . فاتفق على رحلة خاصة الى جزيرة الفيل تكون نجمتها المطربة المعجزة عائشة الفلاتية . . قامت الرحلة . . وحين حل الظلام كر الفريق عائداً الى واد مدني . . وفي وسط دردق القرية التي كانت تقع بين جزيرة الفيل وواد مدني . . وكانت تشتهر بعض الأماكن فيها بالخمور البلدية . . كمن البوليس هناك . . وانقض على الركاب وبينهم المطربة الفلاتية . . وجرى تحقيق في (الأساس) وهو المقر الرئيسي للبوليس بعد الأورطة مقر القومندان . . واطلق سراح المعتقلين بالضمان . . وقد وجدت في حيازتهم بعض الممنوعات .

ولما كان اعضاء الفريق من المقبوض عليهم من (أولاد الناس) . . . ولما كانت الفلاتية المطربة الوحيدة على المستوى القومي آنذاك . . فإن الحادث ملأ المدينة كلها . . روي أكثر من رواية ليس بينها الرواية الصحيحة . . وتمت اجراءات القضية وتحدد يوم نظرها . .

وهنا يجيء دور اليمباشي احمد عبد الوهاب البحيري . . جلس في مقعده رئيساً للمحكمة . . ونادى على القضية . . سأل المحقق . اين وجدت هؤلاء الشبان . . قال في دردق . . سأل بماذا تشتهر بعض الأماكن في دردق . . قال بالخمور البلدية . . قال انها ليست لهم . . تشطب القضية . . وكان البكباشي احمد عبد الوهاب البحيري . . يراعي في جميع احكامه الاضرار الاجتماعية التي سوف تترتب عليها . . ثم بعد ذلك كان يواجه من وقفوا امامه كأب . . وأب عنيف . . لكن خارج المحكمة .

صالح بحيري وصديقه أبو زيد أحمد

كانا صديقين حميمين . . الأول رجل تربية وتعليم مشهود له بالباع الطويل في ميدانه . . ولم يبلغ شهرته كناظر لمدرسة مدني الوسطى في التعامل بشدة مع التلاميذ إلا صديق فريد . . وحسن الطاهر . . انه صالح بحيري . . اما الثاني . . فهو شيخ الجزارين أبو زيد احمد . . ويعرف بشيخ أبو زيد . . نظيف الثياب . . نظيف اليد . . يرتدي الجلباب والشال والعمامة . . وكلها بيضاء . . وهو واحد من أوائل المواطنين الذين اقتنوا السيارة . . فطبيعة اعماله التي يتنقل بينها يومياً كانت تفرض عليه ان يستخدم السيارة . . ابتغاء للسرعة . . وضناً بالوقت الذي ينبغي ألا يهدر . . كان عمله في سوق الماشية بالسوق الجديد من بيته في ود ازرق . . وكان في السلخانة الواقعة في أقصى الغرب من المدينة . . وكان عمله في قلب السوق الكير حيث زنوكة اللحم ومكتبه التجاري بين الدكاكين . . ووسط حوانيت الهنود . . وكان عمله حيث مزرعته القريبة من غابة أم بارونة في اقصى شمال شرق ود مدني . . ونشاطه الاجتماعي عمل . . فهو عضو في لجنة المدرسة الاهلية . . وأب دائم الأبوية للنشاط الثقافي لتلاميذ جميع المدارس في المدينة . . وقبل ان تنشأ مجالس الأباء . . وبخاصة اعاناته المستمرة للحركة الكشفية واعانات لا تنفصل عن قضية التعليم . . وقضايا التربية يستفيد منها الفقراء من التلاميذ تدفع لهم باسم اللجنة وهي في الواقع من شيخ أبو زيد وغيره من القادرين امثال عثمان أبو العلاء . . واحمد الحضري . . وغيرهما . . وهو باني الجامع الرابع . . اذ لم يكن بالمدينة قبل

مسجده إلا ثلاثة مساجد هي جامع الحكومة .. وجامع البوشي .. وجامع عثمان زياد .. ثم بنى مدرسة تحمل اسمه ولعلها تطورت الآن لتصبح عدة مدارس للبنين والبنات بينها الثانويات ..

وكان يحلو لأهل المدينة عندما يتحدثون عن اغنيائها ان يرتبوهم درجات .. من هو الأول .. والثاني .. والثالث .. وهكذا .. وكانوا يختلفون في الثاني .. وبقية القائمة لكن أول الأغنياء كان شيخ أبو زيد .. فهو الترتيب الذي اجتمعت عليه كلمة الناس .. اما دكانه أو مكتبه فهو عبارة عن مكتب خشبي يفتقر الى الأناقة .. يقبع فوقه جهاز تليفون أسود .. وامامه ميزان تجاري كبير لا يوجد إلا عند تجار الجملة .. وفي البرندة .. عنقريب يجمع في شكله بين الهبابي .. والخرطة .. عار إلا من سجادة عجمية ووسادتين .. يجلس فوقه شيخ أبو زيد أو يتكىء على وسادتيه .. زواره كثر، يجمع بينهم العمل .. ومع مكانته المرموقة تلك .. المالية والاجتماعية .. فإن البعض كان يأخذ عليه انه قريب من الانجليز .. لكنه ايضاً قريب جداً من مواطنيه .. بالنسبة للانجليز فانه لا يمر شهر إلا ويقيم لهم حفل شاي في بيته الى جانب كونه رجل الدعوات الرسمية التي تقيمها الحكومة .. الى جانب انه كان يقدم لكل انجليزي يصل المدينة منقولاً اليها .. هدية لا تتغير هي بقرة حلوب معها عجلها .. وكان الحديث عن العلاقة بينه وبين الانجليز مما يتداوله ويصل الى مسامعه .. كان ذلك الحديث يؤرقه .. وكان الشباب من على البعد .. ينظر اليه على اساس انه انسان لغز، لا يعرفون عنه إلا انه اغنى الاغنياء في ود مدني .. لم تتح لهم الفرص للاقتراب منه والتحدث اليه .. وان كانوا في اعماقهم يتمنون لو تحدث اليهم ليعرفوه .. وذات يوم كان فريق من هؤلاء الشباب في طريقهم لزيارة بعض اصدقائهم في

السوق . . وكان شيخ أبو زيدٌ يجلس منفرداً على غير العـادة . . وفـوجئوا بـه يناديهم . . وأسـرعوا اليـه . . وفوجئـوا اكثر عنـدما صافحهم واحداً في اثر واحد وبأسمائهم . . وسرهم ذلك كثيراً مما اشعرهم بانهم أصدقاء للرجل منذ قديم الزمان وطلب اليهم شاياً من بائع متجول في المنطقة . . ثم اخذ يلاطفهم بحديث المجاملة . . الى ان دخل في اللحم الحي . . بادر بالحديث عن نفسه وعن صلته بالانجليز . . وسألهم اذا كانوا يملكون عقاراً أو مزرعة أو مصنعاً . . ولما كانت اجابتهم بالنفي قال . . اما انا فإني املك العقار . . واملك المزرعة . . وأملك من المال والمتاع ما يجعلني اكثر حرصاً على تراب الوطن . . منكم . . فلا يخطر ببال احدكم بأني ضد ما تقومون به من نشاط . . فلكل منا طريقه أنا أتقرب من الانجليز واكسب صداقتهم ليس من اجل نفسي . . ولكن من اجل بلدي وابناء بلدي . . انتم تعرفون ان فلاناً . . وفلاناً . . ممن ينهلون العلم في جامعات انجلترا وغيرها . . لقد سعيت من اجل تعليمهم في الخارج عن طريق صلاتي تلك بالانجليز التي لا ترضونها . لأسألكم سؤالاً أرجو ان تجيبوني عليه بصدق : لنفترض ان الانجليز غادروا البلاد الآن . . وذلك شيء يسعدنا جميعاً . . ألا ترون ان من يلي الحكم من بعدهم من المواطنـين من الواجب ان يكـون في مثل تأهيلهم . . هذه معادلة لا بد ان تكون . . ان تقوموا انتم بدوركم في ازعاجهم مطالبة مستمرة بالجلاء . . وان يقوم آخرون باعداد من سوف يتولون المسؤولية في الحكم من بعدهم . . اعتقد انه من المفيد لنا ان نكون مستعدين بحكم انفسنا حين يخرجون . . وذلك لا يتم إلا بتأهيل ابناء السودان تأهيلاً عالياً لا يقل عن تأهيل من يحكموننا الآن . . وهذا هو ميداني الذي أعمل فيه . . وهدفي الذي اسعى لتحقيقه . . ومن اجله فإني حـريص على صـداقتي للانجليـز . .

حاربوهم بطريقتكم . . بالليالي السياسية . . بالمظاهرات . . ودعوني اجاريهم بصداقتي لهم ومنذ ذلك اليوم . . انزل اولئك شيخ أبو زيد في نفوسهم مكانة استحقها . . ويستحقها فقد كان صادقاً . . تكلم بحرارة . . وانفعال . . ومرارة في ذات الوقت . . اصبح صديقاً لأولئك الفتية يزورونه دائمًا . . ويستمعون اليه في شغف وفي رغبة حقيقية . . استطاع الرجل ان يقيم جسوراً من المودة والفهم بينه وبين جيل لا ينتمي اليه . . والواقع ان صداقة شيخ ابو زيد للانجليز لم تصب مواطناً واحداً بأي ضرر . . تلك حقيقة تاريخية بل العكس هو الصحيح . . فإن الرجل العظيم وهب كل جهده وماله . . ووقته وهمه لبني وطنه . . فعاش بين الناس كبيراً بين الكبار وأباً للأجيال من بعده . . رجل بر . . وخير . . ونفع . .

وكان الناس يعزون الصداقة بين شيخ ابو زيد وصالح بحيري الى قربهما معا للانجليز . . عزا آخرون الصلة الى اتفاق الاهتمام بقضايا التعليم . . وبالنسبة للثانية فان فيها جانب كبير من الصحة . . اما عن الاولى وقبل ان نتطرق اليها لا بد من الحديث عن صالح بحيري . . ومكانته بين مواطنيه . . رآه الناس . . علما بينهم . . كانت ذراعه واحدة . . قيل ان الذراع المبتورة كانت نتيجة كسر فيها شنيع في واحد من ميادين كرة القدم بكلية غردون حيث كان صالح بحيري طالبا فيها . .

وكان واحدا من القليلين يملك سيارة يقودها بنفسه وبذراعه تلك . . يمسك عجلة القيادة . . ويتعامل بها مع بدال السرعة . . كان من ابرز المعلمين الذين تركوا بصماتهم في مجال التعليم في السودان كله . . كان ناظرا لمدرسة ودمدني الاميرية . . وكان قاسيا مع التلاميذ . . ثم مفتشا للتعليم في مديرية النيل الازرق .

الاقليم الاوسط الان بمحافظاته الثلاث .. وعلى ايامه كان مدير المديرية العلامة البريطاني المستر بريدن .. وهو شخصية لم يعرف عنها تسلط المستعمرين من الانجليز .. كان مثقفا وحكيما ومقنعا .. لكنه فقد اعصابه ذات يوم .. والسبب ان ثلاثة من الشبان من اصحاب التأهيل العالي .. ومهنتهم التعليم .. اي هم في عداد الموظفين المحظور عليهم العمل السياسي .. تجرأوا وعقدوا اجتماعا في الجزيرة خاطبوا فيه سياسيا الاف المزارعين .. وكان الشبان الثلاثة هم محمد سليمان احمد .. وابراهيم مصطفى شرف الدين .. والهادي احمد يوسف الشاعر الفذ الذي الهب الجو بحرارة شعره الوطني العاصف .. وصادف في ذلك الوقت ان كان المعلمين في ودمدني من ابنائها ما عدا بابكر على .. والتجاني على .. واستدعي المستر بريدن مدير المديرية .. مفتش التعليم صالح بحيري .. وتحدث اليه بشأن المعلمين الثلاثة وما شعلوه وسط المزارعين وامر بأن يحقق معهم بما ينتهي بفصلهم من الخدمة حتى يكونوا عبرة لغيرهم .. وخرج صالح بحيري من لقائه بالمستر بريدن .. وفي نفسه شيء مختلف تماما اذا استدعي الفرسان الثلاثة .. وافضي اليهم بما دار بينه وبين مدير المديرية ..

واجرى معهم تحقيقا شكليا .. انتهى بقرار شخصي منه بتذكير او لفت نظر الى قرار الحكومة الذي يمنع الموظفين من الاشتغال بالسياسة .. وان كان في اعتقاده هو شخصيا مفتش التعليم .. ان المعلم ليس موظفا .. هذه شخصيات لا تنسى .. ظلمها بعض الناس زمانا .. ولربما كان اصل القصة اروع من ذلك بكثير .. وبيننا الآن الفرسان الثلاثة .. ومنهم مؤرخ عظيم هو الاستاذ محمد سليمان والقصة جزء من تاريخ هذا الشعب لا بد من تسجيلها .

أيام شركة النور

كان المستر نايتنقيل مديرا لشركة النور في ودمدني . . وكان مهندسا كهربائيا . . يتولى بنفسه عملية الاشراف واحيانا العمل في حالة الاعطال الكبيرة . . وكان قسيسا للكنيسة الانجليزية . . وكان يضطهد نائبه المستر هيجي . . فلا يكل اليه بأي عمل . . جففه تماما . . وكان المستر هيجي لا يخفي امتعاضه من داخل المومياء التي وضع فيها . . فالمومياء عبارة عن مكتب هندسي تحتل وسطه المنضدة الهندسية المائلة والجالس الى جوارها على مقعده الطويل المستر دبوس مهندس الكهرباء المسئول . . والى جانبه مكتب صغير يجلس عليه المستر هيجي نائب المدير . . لكنه مع ذلك كله محنطا ومجففا عن اي عمل ، الا انه لم يتأخر عن مواعيد حضوره للشركة دقيقة واحدة . . ولم يخرج من مكتبه قبل نهاية ساعات العمل بدقيقـة واحدة . . والمدهش ان المستر نايتقيل حين يقترب موعد اجازته السنوية . . يطلب الى نائبه ان يسافر في اجازته . . وبعد نصف شهر او عشرة ايام يسافر المستر نايتنقيل . . وذلك لكيلا ينوب عنه المستر هيجي وكان العاملون بشركة النور يتحدثون في ذلك بحذر شديد ولكنهم لا يعرفون سببا لتلك المعاملة . . فالشاهد ان نائب المدير منذ ان تقلد منصبه في الشركة تقلده مصحوبا بالاضطهاد . . لم يسند اليه عمل ابدا . . ولم يجرؤ احدا ان يسأل عن السبب لتلك العلاقة المتردية ذلك لأنها بين انجليزي وانجليزي . . والمثل السوداني يوصي بعدم الدخول بين البصلة وقشرتها .

كبار الموظفين بعد الانجليز كانوا ثلاثة . . المهندس دبوس

وقيل أنه سوري .. وقيل لبناني .. واختلف العاملون في جنسيته .. لكنهم اتفقوا على انه من اكثر الناس خبرة ومعرفة لمهنته .. الى جانب انه شخص مهذب جدا ، قليل الكلام .. حتى اذا اراده فان البايب الذي لا يفارق شفتيه يمنعه من ذلك .

كان المسئول عن الكهرباء .. اما الثاني فهو المستر غازار فانيان .. وواضح من اسمه انه ارمني .. لكنه ارمني مدهش ، عرفه الموظفون بانه قادم من جامعة اثينا .. وعرفوا عنه ايضا انه يتحدث لغات الارض جميعها ، الحية والميتة .. وبطلاقة تدهش هي لغة امهاتهم .. اذا جاء اليوناني يتحدث معه لغته والانجليزية هي لغة العمل في الشركة .. يتحدث الفرنسية عندما يريد لموظفي الشركة ان يعرفوا الموضوع .. ويتحدث الايطالية والالمانية .. واذا اضفت الى ذلك كله لغته الأصلية .. الارمنية تجد ان الرجل ارمني معجزة .. اما اللغة العربية فهو يتحدثها بلكنة لا تشبه اللكنة التي يتحدثها الاجانب .. فقد اختلطت عنده بالتركية .. اذا اراد ان يتحدث عن (الجنزير) ينطقه زنجير ..

وهكذا .. المستر ديمتري اليوناني الاصل كان الرجل الثالث وهو المسئول عن المولدات الكهربائية التي تمد المدينة بالقوة الكهربائية التي تحتاجها .. السودانيون كان اكبرهم .. علي ابراهيم عمر .. فمحجوب عبدالله النذير .. ثم عبد الرحمن حربي .. وعبد المنعم أحمد سليمان .. ذلك جانب الموظفين سيد احمد كبير عمال خدمات الماء .. وكانت اهم الشخصيات بين الموظفين شخصية الصراف .. ابراهيم سليمان . وكان ابراهيم الصراف خفيف الظل ، يحبه العاملون جميعا والمتعاملون مع الشركة ، وهو من المديرية الشمالية .. نوبي يصر على الحديث بلهجته .. التي يفضلها

على اللغة العربية التي يتحدث بها سائر الموظفين وذلك لأنه يتحدث العربية بلسان معوج . . تثير ضحك زملائه في بعض الاحيان الذين ما فتئوا يتندرون عليه بان المستر عازار قانيان يتحدثالعربية بصورة يحسده عليها ابراهيم سليمان . .

وكانت بين امدادات الماء في ذلك الوقت النقاطة . . وهي نوع من الامداد المحدود تظل الحنفية فيه مفتوحة على برميل من المسلح او الصاج طوال العام نظير مائة وخمسين مليما في الشهر وكانت غالبية البيوت تكتفي بهذا النظام لانه الارخص . . فالامداد الكامل يكلف ثلاثين قرشا في الشهر اي ضعف ما يكلفه امداد النقاط . .

ودخل فانيان الى مكتب حسابات الشركة ليجد ابراهيم سليمان يحاور زبونا بصوت مرتفع ويقول لازم تعرف انه نظام (التقاقيت) ده . . فتدخل فانيان بامتعاض قائلا . . ياخ ابراهيم نقاقيت ايه اسمه نقاتات . . وكان من بين الموظفين المرموقين . . لوستا لوريكا . . وهو مسئول التثمين . . ثم عبد الرحمن هريدي المخزنجي وكان موظفو الشركة يتمتعون بامتياز الامداد للكهرباء والمياه بما لا يزيد عن اربعين قرشا في الشهر . . بل هو اربعون قرشا نصفها لاستهلاك الكهرباء مهما بلغ ونصفها لاستهلاك المياه . . الى جانب اعطائهم اولوية في شراء المعدات الكهربائية التي تستجلبها الشركة لاغراضها التجارية . . فهي تبيعها لهم بسعر التكلفة وباسقاط مريحة للغاية . . وكان سعر المروحة التربيزة بثلاثة جنيهات ونصف صناعة جي اي سي وقسطها الشهري لا يزيد على الثلاثين قرشا .

وشارك العاملون في السودان كله في الاضراب العام الشهير

عام ١٩٥٠ ذلك الاضراب الذي هز الادارة البريطانية وأفقد سير جيمس روبرتسون اعصابه . . وذلك بسبب مشاركة البوليس . . ولاول مرة ربما في تاريخ العالم ان يضرب البوليس فانفجر السكرتير الاداري سير جيمس روبرتسون واطلق جملته الشهيرة . ارفعوا ايديكم من البوليس بتاعي . . وفي وادمدني كانت المشاركة جماعية وكان يقودها في صمت عثمان حربي وهو شخصية محترمة . . جم النشاط النافع . . فهو شاعر استخدم موهبته في ازكاء نار حركة المجتمع من حوله . . وهو زعيم عمالي حكيم . . يركن زملاؤه الى آرائه . . فهو يتقدمهم ساعة الحارة . . وهو كاتب اديب يشارك بقلمه في الصحف العاصمية آنذاك . . وصديق شخصي لرصيفه حميده ابو عشر . . قارىء من الدرجة الاولى . ومنظر وطني من الدرجة الاولى . . نجحت تدابير عثمان حربي وزملاؤه في ان يكون الاضراب شاملا لا تتخلف عنه نقابة او فرد . . وشاءت الظروف ان يجيء الاعلان بالاضراب عن بعض النقابات متأخرا مما اضفى عليه صفة اللاشرعية في حالة تنفيذه . . .

وكان من بين تلك النقابات . . نقابة عمال شركة النور . الذين استشاروا بعد ان تشاوروا . . وافتى لهم من يثقون فيه . . بان الاضراب غير شرعي . . لكن الاكثر عدم شرعية هو الخروج على الاجماع . . واضرب عمال شركة النور . . وانتهى اضرابهم ليعودوا الى اعمالهم فتكون المفاجأة صدور قرار من المستر نايتنقيل بفصلهم جميعا . . وجرت مفاوضمات ومساومات سبقتها اتصالات وواسطات . . انتهت بان قبل مدير شركة النور ان يكون الفصل من الخدمة قائما على ان يتقدم المفصولون بطلبات جديدة للعمل يقبل فيها من يشاء ويرفض من يشاء . . وقد كان . . وتشاء الظروف ان يعيد الجميع الى الخدمة بعد ان حرمهم سابق خدمتهم .

وفائدها . . واستثنى واحد فقط اسمه عبدالله الحاج . . عامل مقتدر في محطة توليد الكهرباء . . وعلى الرغم من الشفاعات فان مدير الشركة اصر على رفضه . . وساءت حال عبدالله الحاج المعيشية . . وامتد اثر ذلك الى مستقبل ابنائه التعليمي ، فقد فصلتهم المدارس بسبب العجز في دفع المصروفات المدرسية . . لكنه ظل يواظب على الحضور يوميا الى شركة النور . . يحدوه الامل في ان يغير المستر نايتنقيل من اشراره على تشريده بتلك الصورة وكان لمدير شركة النور ابنتان يحبهما جدا وكانتا يتعيشان مع امهما في بريطانيا . . هما شيلا وانطوانيت . . وكان يعيش عازبا في قصره داخل حوش الشركة . . وكانت تربطه علاقة هو والقيسيس بامركية في الارسالية الامريكية . . علاقة غير واضحة تماما . . لكنهما كانا لا يفترقان . . ربما جمع بينهما كونه قسيسا وهي مسئولة عن مؤسسة دينية . . وتشاء الظروف ان ترد برقية عاجلة من بريطانيا تنبئه بان والد زوجته قد مات . . وكان يملك مصنعا للدراجات يحتاج لمن يديره . . فقدم استقالته . . وجمع الموظفون والعمال مالا للحفل يودعونه به ويستقبلون به في ذات الوقت خلفه المستر ألن . ومشكلة عبدالله الحاج لا تزال قائمة . .

وكتب ذلك الذي وثق فيه العمال حين اشار عليهم بعدم الخروج على الاجماع رسالة تلقى في الحفل امام المستر نايتنقيل . . مفادها انه سافر الى بلده . . وسوف ينعم بثروة هبطت عليه من السماء . . وهو رجل متدين يحب بنتيه شيلا وانطوانيت عليه ان يتذكر وهو في بلده . . انه كلما حلت كارثة بشيلا وانطوانيت . . ان هناك في السودان وفي مدينة ودمدني . . وفي الحلة الجديدة فيها . . عبدالله الحاج ذلك الذي تقدم الى شركة النور وعمره ١٦ سنة . . وتعلم فيها . . اكتسب الخبرة من خلال الممارسة واحس بشيء من

الاستقرار النفسي والاقتصادي حمله الى تـأسيس اسرة . . فتـزوج وانجب . . واصبح مسئولا . .

واذا بذلك كله يهدمه او يحاول هدمه من اساسه رجل دين هو القس نايتنقيل . . أعلم ايها المدير المسابق لشركة النور انك مسئول عن كل عناء تكابده هذه الاسرة التي انزلت بها عقابا لن يمر بغير عقاب . . وتذكر ايضا انا دعتك قدرتك على ظلم الناس فتذكر قـدرة الله عليك . . ليس هـذا سوى تـذكير فقط . . ان شيـلا وانطوانيت اذا ما فجعت في واحدة منهما او كليهما . . فاعلم ان عبدالله الحاج هنا في وادمدني رفع يديه الى السماء يشكو حاله ويدعو عليك . .

واذا بالرجل بعد ان قرأ تلك الرسالة ينهار . . انهار فيه المدير المتسلط ليستيقظ عنده الانسان والضمير . . ورجل الدين . . فيكون آخر قرار يصدره اعادة عبدالله الحاج الى العمل . . واعادة كل حقوقه التي حرمها فترة الفصل . . وسافر من السودان الى بلاده بريطانيا العظمى . . سافر سعيداً . . .

المرض قبل ثورة البنسلين

كان صاحبنا شأنه شأن الكثيرين من اهل المدينة .. يحس بامتلاكها كلها يمتلك فيها المستشفى والمدرسة والسوق والنهر .. .. والحدائق .. والمزارع .. وهو بذلك شان اهل المدينة ايضا يرى أنه من حقه أن تمتد يده الى الجروف والبلدات والجناين يأخذ منها ما يشاء دون أن يحس حرجا .. على الرغم من انه لم يغرس أو يتعهد الزرع ويرعاه بالسقاية وتنظيف الارض حوله من الحشائش .. فهو قد قرأ مثلما قرأ غيره من تلاميذ تلك الايام في المرحلة الاولية وفي كتاب مطالعتها التحفة السودانية من تأليف عمر اسحق .. وكمال الدين عباس .. وعباس العبيد .. ومحمد عبدالله البنا ومحمد الحسن دياب .. وفيه قصة مشهورة لكسرى انو شروان حين وجد فرحا عجوزا يغرس شتول النخيل فسأله او تنتظر حتى تثمر هذه النخلات فتاكل من ثمرها .. فرد الفلاح العجوز قائلا زرع آباؤنا فاكلنا .. ونحن نزرع ليأكل ابناؤنا ...

كان مقتنعا وما زال بتلك الحكمة الخالدة .. ومن احساسه بملكية كل شيء في المدينة .. كان يستشعر امتلاكا حقيقا لخدمات العيادات الخاصة فيها التي يملكها الاطباء من ابناء ودمدني .. وكان يكثر مثل العديد من الناس من زياراته للدكتور عثمان الحضري والدكتور عبد الرحيم محمود ابو عيسى .. فقد كان يشكو من التهاب دائم في اللوزتين يزورهما مرة في كل شهر .. واحيانا اكثر من مرة .. وكان العلاج في ذلك الوقت يعتمد على السلفا فالبنسلين لم يكتشف بعد ..

وقال الدكتور عثمان الحضري بعد ان يجري كشفه المجاني . . يمده باثنتي عشرة حبة من السلفا . . ويطلب اليه ان يتناولها بمعدل حبتين كل اربع ساعات . . وذات يوم طلب منه الخليفة عـ . ان يتحدث عنه الى صديقه الدكتور عثمان الحضري . . فهو يشكو سقما لا يعالجه الا هو . . ورحب د. الحضري . . وتحدد اليوم التالي . . وكان صاحبنا في انتظار المريض خارج العيادة . . وحوالي الخامسة والنصف مساء رأى المريض يتقدم موكبا من الرجال والنساء والاطفال . . ويزحف الى العيادة . . وكانوا افراد الاسرة . . المريض منهم . . وبعض المعارف والجيران . . وكظم د. عثمان غيظه . . لم يقل شيئا . . وانما بروح الطبيب الانسان شرع في الكشف والمعالجة حتى العاشرة ليلا . . لكنه لم يترك المسألة تمر هكذا اذ لام صاحبنا على فعلته تلك فهو يعالجه هو وافراد اسرته بالمجان وهو يرحب بذلك جدا لكن الذي لا يقبله ان يضيف الى تلك الخدمات الشخصية خدمة كالتي حدثت الان . . وغضب صاحبنا مغادرا العيادة وقد صمم بينه وبين نفسه انه لن يعود مرة أخرى مهما كانت الاسباب . . ومن سوء حظه تعرضت لوزتاه الى التهاب حاد بعد ثلاثة ايام . . فلم يشأ ان ينكسر ويعود الى صديقه الدكتور عثمان الحضري . . فقرر ان يعالج نفسه فالمسألة لم تعد تحتاج الى طبيب

ذهب الى الاجزخانة . . واشترى حبوب السلفا . . دستة . . لكنه عكس طريقة الاستعمال . . اخذ يتناول اربع حبات كل ساعتين وان المفروض ان تكون حبتان كل اربع ساعات . . ومن اول جرعة دوائية شعر باكتئاب فظيع وبشيء من الدوار وببرودة في جسده وبان مسامه كلها اتسعت فأنبأ عبد الرحمن حربي بما يحس به طالبا نصيحته . . وحربي كان يعمل في وزارة الصحة كاتبا وكان مقره مستشفى ابي عشر فاستقال منه والتحق بالعمل في شركة

النور . . ولأنه عمل بوزارة الصحة لا بد وان يكون ملما بالاشياء البسيطة مثل الحالة التي استشير فيها . . .

وقال حربي ان ما تشعر به لدليل على نجاح المعالجة . . استمر فيها . . فقط عليك ان تعرض نفسك للشمس كلما اشتدت البرودة واحسست بحاجتك لشيء من الدفء .

قال انها ليست المرة الاولى التي اتناول فيها هذه الحبوب . . لكنها المرة الاولى التي اكابد فيها منها وبهذه الصورة . .

واخذ صديقه عبد الرحمن حربي يهون عليه الامر ويشجعه على الاستمرار وحين ابتلع الحبات الاربع الاخيرة . . فقد القدرة على الحركة . . وقال يشعر بحاجة مستمرة للتبول . . وكان الظلام قد ارخى سدوله كما يقول المنفلوطي . . وامضى ليلة رهيبة قاسى فيها الشيء الكثير من الالم . . فلم يكن الى جواره . . احد من الناس . . كان يقيم بمفرده في البيت فقد سافر اهله الى العاصمة لمناسبة من المناسبات ولم يبق سواه في البيت . . وابن عمته في البيت المقابل للمنزل الذي يقيم فيه .

وحين اصبح الصبح تلفت حوله ليجد ان الحوش قد فرش باللون الاحمر . . فان ما ظنه (البول) خلال الليل . . كان دما . . فاغمي عليه في الحال . . لكنه افاق بعد لحظات واخذ يحبو مرة ويزحف مرة الى ان قطع الشارع حيث منزل ابن عمته . .

وبيد واهنة بدأ يطرق الباب وخرج به ابن عمته مسرعا بسيارته التاكسي الى منزل وعيادة د . عثمان الحضري . . فايقظه من النوم وعرض عليه مريضه راقدا على الارض بلا حراك . . ومن سوء الحظ ايضا ان ذلك الحادث وقع ابان تنفيذ الاضراب الشامل في السودان عام ١٩٥٠ . .

وارتبك د . حضري وطلب ان يحمل المريض الى المستشفى وسوف يلحق به فورا . . وكانت المستشفى خالية من المرضى . . ومن الممرضين . . لم يكن بها سوى فحيص معروف اسمه بكرى . . وجاء د . الحضري وبصحبته حكيمباشي المستشفى الدكتور علي نور والدكتور عبد الرحيم ابو عيسى وتعاون الحاضرون في افراغ مكتب الحكيمباشي من اثاثه القليل وادخلوا سريرا ولم يقدموا علاجا فقد فات الوقت . . وان المسألة مسألة وقت . . وبعدها الطوفان . . وكان صاحبنا يحس عطشا متثلا لكنه ما ان ينتهي من شرب الماء الذي يطلبه على الدوام حتى يتقياه بالسرعة التي شرب بها فقد اصيب بتسمم حاد اتى على الكليتين . .

وجاء طبيب انجليزي شاب يدعى دكتور كلارك . . جاء بمقعد حديدي ابيض وجلس الى جوار ذلك المريض . . ينظر الى حالته وينظر الى ساعته . . وتوافد عدد كبير من المعارف ومن الجيران . . نساء ورجالا . . اما النساء فكن يبكين واما الرجال فجاؤا مستعدين يحملون (العنقريب) وفي مقدمتهم يوسف ابويمن . .

حاول د . كلارك ان يستعين (بالدرب) لكن المريض رفض ذلك في اصرار . . . فقد شاهد اخاه قبل عامين يموت امامه وفي نفس المستشفى وفي ذراعه الدرب . . وحاول أن يخدره لكنه رفض ايضا فقد ظن انه اذا غاب عن وعيه فلن يصحو مرة أخرى . . .

لكنه ما احس باقتراب الموت على الاطلاق ولعله الوحيد الذي كان يشعر بذلك . . وطال مكوث دكتور كلارك . . جاء العصر فالمغرب فالعشاء والحال في حاله . . وفجأة غفا للحظات . . ثم جلس فوق سريره لاول مرة . . منذ بداية اليوم . . وتحدث لاول مرة بكلام سوي ومفهوم . . طلب صودا . . انه يريد صودا . .

وضجت النساء بالبكاء فهي في نظرهن (فجة موت) وجيء بالصودا . . وشربها بلهفة . . وتلذذ . . . ثم رقد من جديد . . ومرت خمس دقائق . . وهنا هب دكتور كلارك واقفا وطلب احضار كل الصودا الموجودة بالقسم الانجليزي بالمستشفى . . ودعمت فيما بعد بكميات اخرى من السوق . . ذلك ان الطبيب البريطاني لاحظ ان صاحبنا لم يتقيأ الصودا مثلما كان يتقيأ الماء فقد استقرت في جوفه . . واخذ يشجعه على تناول الصودا . . .

وفي تمام العاشرة مساء . . انقطع سيل الدم القاني . . الى ان عاد بوله الى لونه الطبيعي . . عندما غادر دكتور كلارك المستشفى . . وفي صبيحة اليوم الثاني . . كان في احسن حالاته . . وطلب ان يسمح له بمغادرة المستشفى التي غادرها بالفعل . .

وزاره الدكتور محمد عبد الفراج الطالب آنئذ بنهائي طب جامعة فؤاد الاول بالقاهرة وعرض عليه ان يسافر معه ليعرضه على اساتذته هناك . . فان الازمة التي مر بها سوف تؤرقه طوال حياته .

وسافر الى مصر وعرض نفسه على اطبائها الكبار عن طريق علاقات د . فراج وتولى امره الاستاذ الدكتور سيد بك . . هكذا ينادونه . . ووجد رعاية من على البرير . . ومن محمد امين حسين . . وصادق عبدالله عبد الماجد . . ومحمد زياده حمور . . وجبر عبد الرحمن . . والجنيد علي عمر . . وكانوا جميعا ينهلون القانون من الجامعة المصرية . . .

وبعد مضي اسبوعان من الكشف والفحوصات والتحاليل قال الدكتور سيد بك انه دهش للنتيجة التي خرج بها فأن الكليتين سليمتان تماما والمسألة ببساطة ان الله اراد شيئا لا يعرفه الطب . .

وهنا قص صاحبنا على الدكتور سيد بك قصته مع الغفوة

القصيرة وما سبقها . . قال . . وكان في حالة صفاء نفس مدهش اتجه بقلبه وعقله الى الله . . واخذ يوجه اليه كلاما لا يسمعه احد غير الله . . واستمر في كلامه ذاك الى ان راح في غفوة لم تستمر طويلا . . استيقظ بعدها ليطلب الصودا . . وكان ما كان بعد ذلك . .

وعندما توجه بسؤاله الى الدكتور سيد بك عن السر في مفعول الصودا وما احدثته من علاج يكاد يكون فوريا . . قال لا اعلم . . ان مثل هذه الحالة في حدود علمي لم يمر بها طبيب وهي على الرغم من انها وقعت بالفعل الا انها لا تصدق . . فما من احد وصلت به حالة تسمم الى ما وصلت اليه تلك الحالة عاش بعدها لأن الله لم يرد . . واذا اراد فلا راد لقضائه . .

أعلام أخرى

اذا نظرت الى ود مدني في ذلك الزمان القديم . . لعجبت لانسان يتحدث عن اهلها ولا يجيء ذكر لكثير من الاسماء التي لمعت فيها . . من اهلها . . ومن خارجها . .

امثال القاضي المثالي عبد الرحمن النور . . ومحمد احمد المرضي . . والمهندس مدثر محمود . . ومن اهلها المقاولان شمس الدين الشافعي وعثمان أبو عفان . . ويوسف حسنين صاحب المطعم الشهير . . وناظر المحطة ويس . . والعم غبريال الجالس في دهليزه طوال العام بجسمه الضخم فوق كنبة عثمانلي من أيام الحكم التركي . . والدكتور هازي مياخالي . . ومعلن مباريات كرة القدم مندوباً عن الاتحاد المحلي . . . وصاحب ورشة تصليح العربات سالم العيدروس . . والميكانيكي الرياضي البارع في حمل الاثقال ، سيد مانو . . .

والسبب في عدم التعرض لهؤلاء . . ان بعض النماذج التي اختيرت من الناس فيما سبق . . تغني عنهم . . بل ان المدينة نفسها . . على الرغم من تعصب اهلها لها إلا انهم كأهل برلين من الالمان . . فإن في نظرهم هم الجنس الآري . . وان اعظم ما في المانيا هو برلين . . واهم ما في برلين . . .

وهنا نجيء الى الاحياء . . فكل أهل حي هم الأهم وغيرهم المهم . . وهكذا . . وود مدني هي أهم مدن السودان . . وحي

المدنيين هو الاقدم والأرسخ والأعرق . . أيضاً حي ود ازرق . . كلا انما هو حي البحيرية . . الدباغة . . زقاق خواجة يعقوب . . لا . . انما زقاق الفيومي . . بل زقاق الدناقلة . . لا هذا ولا ذاك كما تقول منى محمود في فرسان في الميدان . .

الأصل في ود مدني فريق النضيراب بداية بخور ود ابشنب . . ونهاية بود الاقرع في أم سويقة ورغم هذا ، فإن اصالة المدينة قادرة تماماً على امتصاص كل وافد اليها ليصبح من أهلها . . تمتص عواطفه . . وكل نبضة خير فيه لأنها كتلة من العواطف وسلسلة من جبال الخير . .

جاءها من بري . . القاضي مبارك المدني . . وهو ابن لاحد اعلام بري . . واعلام السودان شيخ المدني . . وسرعان ما ذاب فيها على الرغم من عزلته التي فرضها على نفسه بحكم وظيفته وقبلتها طبيعته . . . فإنك حين تدخل بيته تعتقد لأول وهلة انك في دار للكتب لم تفتح بعد . . فهو قارىء من الدرجة الأولى . . لا يفارق الكتاب يديه . . يقرأ في القانون فتلك ثقافته وقبيلته المهنية . . ويقرأ في الشعر والأدب والفن والزراعة . . علاقاته بالناس محدودة جداً . . اكثرها مع المتقاضين أمامه . . فهم عمل . . أما بقية الناس فقد اختار من بينهم حسن ابراهيم . . ومجذوب كمال الدين ومحمد عمر الشريعة .. وموسى محمد الأمين الضرير . . وعدد آخر قليل من أهل المدينة . . وفي فترات النضال الوطني ضد الانجليز كانت تحركات الجماهير تسخن احياناً . . لكنها تبرد احياناً . . وكانت قيادة الشارع السوداني في كل مدنه وقراه تتصيد المناسبات لتقيم الليالي السياسية التي يلعن فيها سنسفيل جدود المستعمرين . . .

وتصادف أن اعلن الحاكم العام حالة الطوارىء . . لمجابهة تحرك جديد تزمعه جبهة جديدة ضمن جميع القوى المناهضة للانجليز وأطلقت على نفسها اسم جبهة الكفاح الداخلي . . . وأعلنت سراً عن عزمها اقامة ليلة سياسية في كل مدن السودان احتفالاً بثورة ٢٤ طالبة من القوى الوطنية المشكلة لها ان تحتفل هي ايضاً وقبل الجبهة بالمناسبة . . وأعلن عبد الحليم خليفة رئيس اللجنة الفرعية لحزب الاشقاء بود مدني عن قيام ليلة بالمناسبة في دار الحزب . . ووزع الاعلان في السوق في الساعة التاسعة صباحاً . . وعندما حلت العاشرة كان عبد الحليم قد أُلقي عليه القبض وحقق معه . . وحوكم واقتيد الى السجن . . وكان ذلك بمثابة انذار الى الجبهة. . . التي اسقط في يد سكرتيرها فأمضى سحابة يومه مهموماً . . انه يعلم ان الحكم الصادر ضد الذي سبقه سوف يتضاعف في حالته . . وذهب الى مبارك المدني . . وقص عليه ما هو فيه من محنة . . فطلب اليه ان يجيئه مساء نفس اليوم . . وحين ذهب اليه وجده وقد كتب بخط يده كلمات قليلة في اسطر قليلة يريد ان تطبع في رقاع دعوات صغيرة . . كتب فيها : « السيد . . جبهة الكفاح الداخلي تدعوك الى حفلها الخاص الذي تقيمه بدار الأشقاء مساء يوم . . ولكم الشكر . . وطبعت رقاع الدعوة في مطبعة احمد بحيري . . . ووزعت بالمئات في السوق . . وانتشر الخبر فملأ المدينة . . ولكن الحكومة لم تتحرك فتتعقل احداً . . .

وأقيمت الليلة في ظل الطوارىء المعلنة . . وبوليس الطوارىء يملأ الطرق والشوارع . . . وكان ابطالها الشيخ الخاتم محمد عثمان المدرس بحنتوب في ذلك الوقت . . والدكتور عثمان الحضري . . . والهادي احمد يوسف . . ويوسف محمد عبد الله الكارث . . . والدكتور عبد الرحيم محمود أبو عيسى . . والدكتور حسن موسى

وغيرهم . . .

وفي اليوم الثاني لتلك الليلة . . بعث القاضي مبارك المدني برسالة الى مقيمي الليلة يطلب اليهم ان يكونوا حذرين . . ذلك انه وبمجرد صدور تلك الدعوة بصورتها تلك فإن رئيس المركز . . وقومندان البوليس . . والقاضي . . عقدوا اجتماعاً استغرق ساعات ليجدوا منفذاً قانونياً لاعتقالهم فلم يجدوا . . . لأن الدعوة موجهة الى شخص . . . ولأن الحفل خاص . . .

وتلك الليلة جعلت شيخ مدني الريح وكيل العمدة . . وهو رجل قصير ونحيف يرتدي الكوفية . . جعلته يتمرد على المركز وعلى العمدة . . فينخرط في نشاط وطني لم يتوقف . . . الى الدرجة التي قاد فيها وفداً من ود مدني الى الخرطوم لتهنئة حماد توفيق الذي خير بين وظيفة الحكومة وبين العمل الوطني فلم يتردد في ترك الوظيفة وهي كبيرة لم يتقلدها سوداني قبله . . فقد كان مديراً لحسابات مصلحة الزراعة وكان في الدرجة (دي اس) . . . جاء الوفد بقيادته لتهنئة مدير الحسابات على موقفه الوطني العظيم . . وكان الوفد قد وصل العاصمة بسيارة خاصة من بقايا الحرب العالمية الثانية يطلق عليها كندا . . وكان يملكها ويقودها الفنان الخير عثمان . . وبعد ان ادى الوفد مهمته وقام بها خير قيام . . وكان الوقت شتاء . . فقد استقر الرأي على قضاء بعض الوقت في المقرن ثم يكون السفر . . وكان شيخ مدني ضد البقاء لحظة واحدة في الخرطوم . . غير انه لم يكن له من حيلة الى الاذعان لرغبة الاغلبية . . ولعله الشخص الذي صلى العشاء في حدائق المقرن ذلك المساء . . . وبملابسه تلك مما لفت اليه الانظار . . وتحرك البوكس الكندا من المقرن الى ود مدني . . وكان يقوده صاحبه الخير عثمان . . وحين دخل منطقة الجزيرة . . صعد به الى الاسكيب

وهو ممنوع الاستخدام لغير عربات الحكومة وعربات المشروع . . وتوقف الخير فجأة ونزل من السيارة قائـلاً انه تعب لا يستـطيع الاستمرار في القيادة التي أما ان يتولاها غيره أو يبيتون في ذلك المكان . . وتصدى لها احد اعضاء الوفد . . وبعد لحظات أودعها في قلب الترعة الرئيسية . . والمكان كان قريباً من الحصاحيصا . . وابتل الركاب جميعاً وكانت الكارثة الكبرى قد حلت بشيخ مدني لكثرة ثيابه فالى جانب ثيابه الداخلية فهو يرتدي الجلباب . . وفوقه فرجية قصيرة وعليها قفطان ابيض اشتهر به . . ثم شالاً يلف به عنقه اتقاء لسع البرد . . .

وعلى البعد من الناحية الشمالية للمكان كانت تلوح ألسنة نار اتجه نحوها الركاب تبين لهم فيما بعد انها طابونة يملكها عبد القار وزيري . . الذي وجدوا عنده المأوى والدفء والطعام . . والثياب ايضاً ريثما تنشف ملابسهم . . ثم اعانهم بأن وجه جراراً يملكه الى حيث غرقت السيارة الكندا . . لانتشالها من الماء واحضارها الى الحصاحيصا لكيلا يصبح الصبح . . وتعثر الحكومة عليها في ذلك المكان . . فتكون الجريمة أكبـر . . مخالفـة بالسـير فوق الأسكيب وحادث حركة مريع ربما . . لولا لطف الله . . لراح ضحيته نصف دستة من الناس . . .

ويترك حماد توفيق العاصمة. . . ويعود الى ود مدني . . ومنها الى قرية العيكورة بالجزيرة . . يزرع الطماطم والجرجـير والرجلة والملوخية . . ويعبىء قفافه وصفائحه . . وينتظر البكاسي واللواري لتنقلها له الى سوق المدينة . . وتشاء الظروف أن ينتقل من مزرعته تلك الى وزارة المالية . . أول وزير لها في العهد الوطني . . . ولتلك النقلة الهامة . . . اشادة بالعدالة الانجليزية مهما كان رأينـا فيهم كمستعمرين . . .

ففي أول انتخابات جرت في السودان في ظل الاتفاقية تنافس على احدى دوائر الجزيرة ، عبد الرحمن علي طه وحماد توفيق . . . وامام العملاقين لم يكن هناك أي مكان لثالث . . . وعند قفل باب الترشيحات . . تقدم محامي عبد الرحمن علي طه وكان زيادة عثمان أرباب بطعن في سودانية حماد توفيق . . . وكان يتولى قضية الاخير ، احمد خير وعثمان وني الذي يقضي فترة تدريب بعد تخرجه من الجامعة . . . وتقدم كل طرف بحجته . . . أو ما عنده من حجج . . . ولما لم تكن هذه للتاريخ فإني سوف اتجاوز كل ما قيل في المحكمة . . . للمكانة التي يحتلها المتخاصمون آنذاك في تاريخ السودان . . . مكانتهم الاجتماعية والثقافية . . . فقد كانوا جميعاً في الصدارة . . وجدوا احترام مواطنيهم وهم بينهم . . ويجدونه الآن بعد رحيلهم . . اتجاوز ذلك اذا لأصل الى أقصر حيثيات حكم في تاريخ العدالة في السودان . . جلس القاضي لندس في المحكمة . . ونادى على المتخاصمين . . . وتوجه بالسؤال لحماد توفيق . . هل سبق لك ان سافرت الى خارج السودان . . . ؟ قال نعم ، ثم ذكر البلدان التي سافر اليها . . سأل ، هل دخلتها بجواز سفر . . قال كلا وإنما فيزا . . . سأل : من أين صدرت لك تلك الفيزا . . قال من مكتب السكرتير الاداري لحكومة السودان . . هنا طلب اليه الجلوس ثم شرع يخط كلمات على الورق . . رفع رأسه بعدها يعلن حكمه . .

قال ان صدور الفيزا من حكومة السودان تعني ان حاملها من رعايا تلك الحكومة والفيزا تعني حماية الحكومة . . أي الوطن . . فالذي يطلب حماية الحكومة في السودان فذلك يعني انه لا ينتمي الى اي بلد غيره . . ولهذا تقرر المحكمة أن حماد توفيق سوداني لا شك في سودانيته . . .

الحياة الثقافية

كانت المكتبات بـوادمدني لا يتجـاوز عددهـا الخمس اهمها واكبرها سودان بوك شوب التي تملكها المكتبة الانجليزيـة ويؤمها البريطانيون في المدينة والشركة الزراعية والاداريون من المراكز التابعة للمديرية ويرتادها ايضاً نفر قليل من السودانيين المثقفين وعدد من متعلمي الجاليات الاجنبية وهي المكتبة الاكثر اناقة والاكثر ازدحاماً بما تحتويه ارففها من الكتب بـاللغة الانجليـزية في مختلف فنـون الثقافات والتخصصات الاجنبية وما يحتاجه التلاميذ في كل المدارس التي تفي حاجة المدارس الاجنبية وما يحتاجه التلاميذ في كل المدارس من الادوات المدرسية من أقلام وكراسات واساتيك ايضاً كـانت تتاجر فيها تحتاجه الشركات والبيوتات التجارية والبنوك من دفـاتر ودبابيس بمختلف انواعها وخرامات وملفات وورق الكتابة وورق الكربون وما الى ذلك ـ وكان يديرها سوداني هو اسماعيل زيدان . .
اما المكتبات الاخرى فان بعضها كان جزء من تجارة أخرى من بينها الكتب مثل مكتبة سيد مضوي الحاج الذي كان يعرض الزيت جنباً الى جنب مع الكتاب . . ومحمد علي حسون الساعاتي ا لذي يعمل في نشر الثقافة من متجـره الذي اقـامه لبيـع وتصليح السـاعات والصحف والمجلات كذلك الحال بالنسبة لمكتبة بشير محمدين غير ان اهم المكتبات جميعاً كانت هي المكتبة الوطنية لصاحبها عيسى عبدالله وهي تمتاز على بقية المكتبات بأنها المكتبة الاكثر ازدحاماً بجمهور القراء ذلك انها احتكرت الصحف السودانية والعربية وغير اليومية وايضاً الصحف المصرية الى جانب تجارتها في الكتاب الصادر من

المطبعة العربية . وبخاصة ما يجيء من مصر وما اكثره تلك الايام وكان صاحبنا مثل عـدد كبير من ابنـاء جيله يتطلع الى المعـرفة والوقوف على فنونهم واسرارها فكانوا فئران كتب وصحف ومجلات وكان يحز في نفوسهم ان تخلو كل المكتبات وعلى كثرة ما معروض فيها من مؤلفات من اسم لمؤلف سوداني واحد اللهم الا باستثناء وحيد هو مكتبة بشير محمدين التي تعرض بعض الكتيبات الدينية لمؤلفها صاحب المكتبة نفسه احياناً بعض الكتيبات ايضاً المماثلة لصديقه عبد الحميد البوشي .

ويذكر صا حبنا انه فوجيء ذات يوم بكتاب أنيق معروض مع الكتب يحمل اسم (موت دنيا) لمؤلفيـه محمد احمـد محجوب والدكتور عبد الحليم محمد وشعر بسعادة لا يذكر انه احس بمثلها قبل ذلك اليوم وبلهفة المشتاق طلب من صاحب المكتبة ان يمده بنسخة من الكتاب وسأل الكتاب بين يديه عن ثمنه فقال عيسى عبدالله انه خمسون قرشاً بالتمام والكمال ولما كان قد حصل قبل ايام على كتاب الدكتور طه حسين (على هامش السيرة) بأثني عشرة قرشاً للجزء الواحد فقد رد في سخرية العاجز عن دفع ذلك المبلغ الكبير وذلك بعد ان طارت فرحته وتلاشت سعادته قال (انني لا ادفع هذا المبلغ ثمناً لمؤلفي الكتاب اذا ما عرض للبيع) ولاحظ اضطراباً في وجه صاحب المكتبة واذا بيده تنزل على كتفه يتبعها صوت قوي واثق يطلب في ادب جم من صاحب المكتبة ان يقدمه هدية منه لهذا الـزبون المفلس الغـاضب واستدار صـاحبنا ليـرى صاحب هذا العرض السخي فيجد نفسه امام انسان انيق يرتدي البدلة كاملة ويمسك في يده عصا تكمل وجاهته ويضع على رأسه برنيطة ويبتسم ابتسامة اشاعت الكثير من الرضا والاعجاب والتقدير في نفس صاحبنا الذي انطلق لسانه وهو يرتجف خجلاً ليقول (اذاً

انت الاستاذ محمد احمد محجوب) وكانت تلك الحادثة هي التي ربطت بينه وبين المحجوب بصداقة حميمة ومودة لم تنقطع حبالها الا برحيل ذلك الرجل العظيم عن الدنيا الفانية وكان محمد احمد محجوب في تكل كالايام يشغل منصباً قضائياً يعرف في تلك الايام بالقاضي الجزئي ولعله كان السوداني الوحيد بين جمهرة القضاء في المدينة اذ كانوا كلهم من الانجليز وحين جاء المحجوب الى ودمدني اشعل فيها ثورة ثقافية وادبية وفكرية . . كان ميادينها نادي الموظفين وبيته وبعض بيوت الاصدقاء ولقد ظلت تلك الثورة الثقافية متوهجة من بعده على الرغم من ان مكوثه قاضياً جزئياً في ودمدني لم تبلغ العام او بعض العام . . ومن المدهش في شخصية محمد احمد محجوب القاضي والمهندس والمحامي والاديب والشاعر انه جاء الى عاصمة الاقليم الاوسط وقد سبقته اليها الجمعية الادبية التي كان فرسانها احمد خير واسماعيل العتباني والدكتور ابراهيم انيس وابراهيم عثمان اسحاق وحسن نجيله واضرابهم من قدامي الخريجين الذين حركوا وجدان هذه الامة بما قدموا من عطاء في الوطنية بالثقافة والادب اينما كان واينما حل . . واذا كانت الجمعية الادبية التي افرزت المهرجان الادبي في ودمدني والذي افرز مؤتمر الخريجين العام هو حصيلة جهد المثقفين . . والوطنيين في تلك الايام فأن محمد احمد محجوب الذي جاء بعد ذلك انما كان امه وحده فهو اضافة لما كان وخطوات متقدمة لما جاء بعد ذلك على طريق توقد الحركة الوطنية والثقافية والفكرية .

ويذكر صاحبنا ايضاً ان عبد الخالق الفضلى الموظف لمصلحة المالية الذكي المثقف الخفيف الظل والحركة معاً كان ينتظره وابناء الحي جميعاً مرة في العام هي اجازته السنوية التي كان يمضي اسبوعاً منها في المدينة ضيفاً على ا بن خالته يوسف الحاج او يوسف سواق

المدير واهتمام اطفال الحي باجازة عبد الخالق الفضلي يعود الى انهم ينتظرون منه مبلغاً من المال اعتاد ان يوزعه عليهم كلما زار المدينة وهو مبلغ خمسة قروش وكان يلاطفهم جميعاً ويلعب معهم كرة الشراب في بعض الاحيان وكان يرتدي البدلة التيل البيضاء دائماً ويضع فوق رأسه الطربوش الذي علم الاطفال فيما بعد انه منشور سياسي دائم يؤكد على علاقة الشعبين السوداني والمصري التي لا تنفصم ابداً . . وكان اخوه محمود الفضلي في تلك الايام يعاني من مطاردة الادارة البريطانية له ولزملائه ابطال اضراب الكلية عام ١٩٣٢ قد كانوا جماعة من المنبوذين . . المشردين الذين اوصدت في وجههم ابواب جميع الوظائف في الحكومة او الشركات وكان يقم في تلك الفترة في ودمدني وانعكس ما يعانيه من قسوة يتعرض لها من قبل الانجليز على اطفال الحي الذين كانوا يتدرجون في المدرسة الاولية المعروفة باسم مدرسة البندر فكان ينتظر اوبتهم ليدخلهم في الديوان ويشرع في مسآلتهم عن درس اليوم ودروس الاسبوع الماضي وقل ما كان يفلت احدهم من عقابه وهو في الغالب بعد الجلد ان يبرك الطفل ديس ويرفع يديه الى اعلى اذا كانت الاخطاء قليلة ام اذا كان الاهمال كبيراً فان اليدين ترفعان وهما تحملان قالباً من الطوب الاحمر او قالبين ولئن صادف ابناء الحي فيما بعد اي نبوغ او تفوق في مدارسهم يرجع الفضل في ذلك لمحمود الفضلي وتمر الايام ويسمع صاحبنا بأن حزباً سياسياً بأسم الاشقاء قد تم انشاؤه بام درمان وأن من اقطابه أو مؤسسيه يحي الفضلي ومحمود الفضلي وظن في بادىء الامر ان اصل التسمية (الاشقاء) انما كانت تقوم على فهم خاطىء لدى . . الامدرمانيين بان يحي ومحمود الفضلي هما الاشقاء اصحاب الحزب فشمر عن ساعد الجد وكتب رسالة تاريخية الى الرئيس الراحل اسماعيل الازهري رئيس حزب الاشقاء يصحح

فيها ذلك الخطأ قال في رسالته (ان يحى اسمه عبد الخالق وان يحي ومحمود ليسا اخوين شقيقين لكنهما اخوان من أبا واحـد وأمين مختلفتين ولهذا ينبغي ان يغير اسم الحزب الى ما يتناسب وصحة المعلومات الجديدة ومن الطريف انه لم ينضم لحزب الاشقاء لاسباب فكرية او موضوعية انما وجد نفسه شقيقاً بالعاطفة على اساس ان حزب الاشقاء وهو حزب الاسرة وقد كان الجاك الفضلى الاخ الاكبر ليحي ومحمود متزوج لعمته .

كانت تلك ايام وذكريات وكم وددت ان لو سجلتها كلها الى الورق كما كانت ومن رؤيتي الخاصة لكن ذلك من المستحيـلات فليس بمقدوري ان اعبىء ماء النيل كله في زجاجة بيبسي كولا .

لطفي الخانجي

لا يذكر تاريخ ود مدني الثقافي أو الاقتصادي أو الفني إلا وذكرت معه هذه الشخصية الرائدة في مجالات التقدم وبكل ما تعني هذه الكلمة من مدلولات . . . ذلك انه كان سابقاً لعصره بخمسين سنة على الأقل فقد كان يجيء بالمعجزات التي ينظر اليها الكبار على اساس انها امور تدخل من باب الملاهي فكل فن من فنونه عبارة عن ملهاة وينظر اليها نفر آخر على انها ضرب من السخف وقلة الشغلة .. وطرف ثالث لا يرى فيها الا الانحراف بينما الرجل نفسه يلقب هو وكل فرد من اسرته التي ينتمي اليها بالشريف دليل صلته بالنبي صلى الله عليه وسلم فقد درج معظم السودانيين في ذلك التاريخ البعيد ان يمسكوا لقب الشريف على كل صاحب سحنة بيضاء فالبيض نسبيا بالمقارنة مع سكان السودان المنتمين الى قبائلهم المختلفة التي خلقت يوم خلقت الارض والوافدة اليه تحمل مشعلة الحضارة الاسلامية والعربية . . . وجدت الاختلاط والتزاوج فكان الغالب الآن الذي زادته لفحات الشمس سمرة على ما فيه من سمرة كان يطلقون على المنتمين للاصول العربية الوافدة في شكل جماعات مثل المغاربة .. والسعوديين .. والحضارمة .. والسوريين .. وغيرهم .. لقب الشريف وبخاصة اذا كان ذلك الابيض من الناس تتقدمهم لحية كثة ويا حبذا لو كانت شعراتها البيضاء متوازية مع السوداء في خلطة « **بيانوية** » ابيض واسود فذلك اشرف الاشراف حتى ولو كان منتميا الى الاتراك .. ولو كان راى مجلس الافتاء في فلسطين في تلك الايام يتم اختياره على اساس

مما يجلس فلم يكن انسب ولا اكثر اهلية من لطفي الخانجي لذلك المنصب الذي كان آخر من تولاه الحاج امين الحسيني مفتي فلسطين فان لطفي الخانجي كان ابيض اللون اكثر مما يجب .. فلونه يزيد بياضا على لون دول الشمال الاوربي وهو قصير القامة .. نحيف الجسم .. سريع الحركة في سيره على الطريق لم ير ولو بالصدفة يسير في الطريق وفي جواره اي انسان من اهل المدينة يتبادل معه الحديث وكان يرتدي زيا خاصا به وحده فعمامته بيضاء ولكنها ملفوفة بطريقة تختلف اختلافا كليا عن العمامة عند السودانيين ولا تربطها صلة بعمامة الانصار او الطربوش المغربي الذي يعلو رؤوس رجال الدين وهي كذلك ليست طاقية احبار اليهود ولا قلنسوة قساوسة المسيحيين في مختلف مذاهبهم لكنها تجمع بين ذلك كله . وكان طبيعيا ان يكون موقعها ان تكون بين اغطية الرأس لمكانة الشعب الامريكي بين شعوب العالم اليوم فهو في اصله منها جميعا ولكنه آخر الامر شعب جديد يحمل طابعا جديدا الم بطرف من اجابية تلك الشعوب وجمعها كلها ليرتديها حلة جديدة في التقاليد والعادات والسلوك فالامريكان هم اولئك النفر من اصحاب القدرات الخارقة الذين ضاقت بيئاتهم القديمة بطموحاتهم فهاجروا منها الى عالمهم ذاك يتعاملون فيه كمسرح مهيأ لممارسة تلك القدرات والطموحات في مختلف مجالات الحياة من الجريمة والى الكنيسة .. وهكذا كانت عمامة لطفي الخانجي .. فلو اننا جئنا بغطاء الرأس من عمامة الى طربوش مغربي الى قلنسوة الى طاقية وادخلناها الى معصرة (خلاط) مزج بينها ثم أخرجها عمامة تحمل ملامح العمامات جميعا لما كان عصيرها الا العمامة التي نحن بصددها فهي بيضاء لا تشعر بأثر لليد الماهرة التي لفتها فانها كتلة واحدة .. فانها قالب وبيضاء نظيفة على رأس ابيض نظيف حازم

يرتدي من الملابس بالطو اقرب الى بالطوهات الاطباء ولكنه ليس منها لم يتيسر لعين ان ترى ما تحت ذلك البالطو وهو لا يتجاوز الا ما دون ركبتيه بقليل ولا ترى من ساقيه الا الجورب الذي يرتديه والحذاء الاحمر اللامع .. عرف السينما بعد ان عرفها العالم المتقدم بسنوات قليلة وربما شهور وجلبها الى مدينته ودمدني مرة باسم الفانوس السحري واخرى باسم السينما واتيح للاطفال ان يشاهدوها في عهد السينما الصامتة .. افلام شارلي شابلن عن طرق سينما لطفي الخانجي التي في الاساس .. كيف عرف بأنبائها .. ؟ ومن كاتب في العالم الخارجي حولها .. ؟ وكيف استجلبها آخر الامر .. ؟ وعلى يد من تلقى تدريبا في تشغيلها وهي في ذاك الزمان .. كانت اية العصر .. وكانت آخر صيحات التكلنوجيا .. علم ذلك كله عند الله وعند لطفي الخانجي نفسه .. بل ان الامر بلغ به مبلغا جعله يدرب ابن اخيه السباح الشهير عبده الخانجي ليدير تلك السينما في غيابه بل وفي حضوره وبينما كان يرى فيه الاطفال عبقريا ادخلهم العصر المتقدم الذي دخله عباقرة الامريكان .. كان رأى الكبار فيه ما سجلناه في موقع سابق من هذه الصفحات .. اما النساء فرأيهن فيه أنه ساحر والخير في الابتعاد عن فنونه تلك .. وكان لطفي الخانجي الى جانب السينما شاهده الناس يجمع الطوابع السودانية والاجنبية ويصرف الكثير من الجهد ومن الزمن في صقلها بعد تنظيفها واعادة ترتيبها في صفحات من دفتر كبير من غير أن يمل ذلك بل أنك تحس انه واجد سعادته فيه ولم يسمع في ذلك الزمان حتى المثقفون بشيء اسمه (هواة جمع الطوابع) وكان مقتنياته ألفنية التراث الفني للانسانية فلم يسبق لمخلوق ان رأى صورة الموناليزا الا عند لطفي الخانجي واعجب ما في الامر انه اقتحم اقتحامه مقتدر دنيا التجارة والمال فامتلك المراكب

الشراعية واشتغل بتجارة الحبوب والاخشاب وحين كنت تراه يقف في الضفة الغربية للنيل الازرق . . اما في اتجاه الاساس مركز البوليس الشهير او قبالة مبنى تسجيلات المحكمة الشرعية فاعلم ان عقله الكمبيوتر حسب ان مراكبه او بعضها في طريقها الى المرفأ لانزال بضاعة ينتظرها وينتظرها الذين اشتروها وكان مكتبه في العمارة التي يجاوره السكن فيها كستاريدس وقهوة الامين ومكاتب احمد الازيرق والمكتبة الوطنية لصاحبها عيسى عبدالله والمدهش ايضا في امر لطفي الخانجي ان شيئا في حياته لا يتغير بتغير ظروفه الاقتصادية . . فهو ابيض البشرة وابيض الملابس وابيض غطاء الراس طوال العام . . نظيفها جميعها طوال الاربعة والعشرين ساعة لا يكدر صفوة ذلك البياض الا الحذاء الاحمر والجورب الاحمر المخطط على ما نعرف اليوم (بالكاروهات) فهو حين يملك عشرات الالوف من الجنيهات ويدير تجارة كبيرة في الحبوب والاخشاب وفي النقل النهري لا يختلف عنه وهو مفلس . . لا يملك درهماً . .

كبر الصغار واتيحت لهم من المعرفة ما استطاعوا ان يقيموا به ذلك الرجل الفذ وان يضعوه حيث كان ينبغي لمجتمعه ان يضعه في مكانة مرموقة ظهر لهم انه جاء قبل زمانه بل سابق له بأزمنة حددها فيها بعد وكشف عن اسرارها العلم وتقنياته التي اتيحت حتى ذلك الزمان . . كان يعرف في الفلك واسرار النجوم على الرغم من ان رأسه لم يرتفع الى قبة السماء حين يراه الناس يسير ويعيش وسط زحامهم في الحياة . . كثير الاضطلاع في الكتب القديمة والحديثة في الادب والسياسة والاقتصاد والفن والعلوم كان بمقدوره ان يعلم اذا اراد من يريد معرفة اسرار صناعة العطور فهو كيمائي بالسليقة اشتغل في كل شيء متقدم واختلط بكل صاحب مصلحة وطموح

ولكنه لم يختلف مع واحد من الناس الى درجة الخصومة عاش حياته وهو صديق لعمله ولفنه وللذين يعشقون عمله وفنه وترك الحياة ولم يبق من بعده فيها الا الحديث عن العبقري في نظر اطفال ذلك الزمان كبار اليوم الذين برهنوا على انه هم ايضاً كانوا سابقين لعصرهم بموالاتهم للطفي الخانجي واعترافهم بفضله عليهم من حيث التثقيف بالمعرفة في مختلف ضروبها الى ان جاءت السينما التي نعرفها اليوم فاكتشفوا حين شاهدوها اليوم انما يشاهدون حركة فنية ليست جديدة عليهم فقد اتاح لهم لطفي الخانجي ان يعايشوها يوم ان عايشها الشعب الامريكي التي ظهرت في مجتمعه اول ما ظهرت في التاريخ .

الشباب المتطلع

وعمت المدينة حيوية دافقة وقد امتلاءت بالشبان المتعلمين من ابنائها ومن من التقـوا وتعارفـوا فتصادقـوا في المدارس والمعـاهد والجامعة . . فجاء الى ودمدني من الجامعة عمر الزين نائب المأمور والرياضي الشهير فيما بعد وكان صديقا حميما لعبد العزيز شدو الذي اوشك على التخرج من كلية الحقوق وصديقا ايضا لصديقه وزميله عبد الرحمن يوسف المحامي الآن وعثمان ابراهيم الـطالب بكلية الطب والملازم اول في قوات الشعب المسلحة احمد خالد شرفي كانوا يهاجمون في زورات مفاجئة وخاطفة لعبد العزيز شدو وعمر الزين فقد التقت اهواؤهم وهوياتهم كما التقت مشاعرهم بكثير من الاشياء المشتركة بينهم فكانوا شلة ما افترقت ردحا طويلا من الزمن والى الآن وعلى الرغم من مشاغل الحياة واختلاف المسؤوليات والعمل ومواقع الهواية فحين نجد عز الدين رئيسا لنادي الهلال في مرحلة زمنية نشاهد عبد العزيز شدو رئيساً لنادي المريخ في حقبة اخرى اطفى هؤلاء الشبان على المدينة حيوية وحركة وبخاصة حينما اتسعت دائرة صلاتهم بالناس ثم كان الدارسون في جامعات مصر الدكتور محمد عبد الفراج وجبر عبد الرحمن المحامي والدكتـور تاج السر الامـين والـدكتـور يـوسف الحضـري وغيـرهـم فكـانت صـلاتهم وصداقاتهم اغرت وشجعت الدكتور احمد السيد حمد وصادق عبدالله عبد الماجد ومحمد زيادة حمور الذي كان اخوه محجوب زيادة معلمًا مرموقاً ومثقفاً اصيلاً يدرس لتلاميذ ودمدني الاهلية اغـرتهم تلك الصلات بالاكثار من زيارة ودمدني وتشاء الظروف ان يكون بين

صاحبنا والصادق عبدالله عبد الماجد من الالفة والمودة والصداقة ما استمر حتى اليوم ويذكر بهذه المناسبة ان رسالة وصلته من القاهرة حين اصطرع الخلاف واشتجر بين الطلاب السودانيين فيها بعضهم بأسم اتحاد الطلاب السودانيين في مصر وكان خاضعاً لسيطرة الشيوعيين واليساريين في ذلك الوقت وبعضها باسم رابطة الطلاب السودانيين بمصر وكانوا موالين للحركة الوطنية في السودان المنادية للنضال المشترك بين شعبي وادي النيل واستطاع كل فريق ان يصدر صحيفة تنطق باسمه وتدعو الى خطه السياسي وكانت صحيفة الرابطة وهي باسم الراية يرأس تحريرها صادق عبدالله عبد الماجد وكان من الطبيعي ان يكتب اليها من ودمدني وكان من الطبيعي ان تنشر له ففي تلك الرسالة التي تلقاها من صديقة رئيس تحرير الراية حمل اليها انباء متفائلة قال فيها ان صحيفة جديدة باسم العمل وهي مصرية صدرت في القاهرة تعني بشئون العاملين والعمال بتمويل من النبيل عباس حليم احد افراد الاسرة المالكة المناوئين للملك فاروق والذي يريد ان يستقطب عمال مصر في حزب يرأس ويدير شئونه وليقف بهم سداً منيعاً يصد عن طريقه تيارات اليسار والشيوعيين ونقل اليه رغبة شخصية من النبيل عباس حلمي بعد ان اطلع عن نشاطه الصحفي في الراية ان يكون مراسلاً رسمياً لجريدة العمل في القاهرة من ودمدني عاصمة الجزيرة وعاصمة المزارعين واغتبط صاحبنا بتلك الرسالة وما حوت ايما غبطة وامسك بقلمه وكتب رسالته الاولى ليفاجأ بعد نصف شهر من الزمان برسالة رقيقة من جريدة العمل بداخلها حوالة بريدية تحمل الارقام خمسة وعشرين جنيها بالتمام والكمال . . وكان السودان وقتها يتعامل بالجنيه المصري والمثير للدهشة ان مرتبه الشهري في شركة النور خمسة جنيهات وخمسة وعشرون قرشاً قالت الرسالة مع الحوالة بضرورة

ارسال صورة فوتوغرافية لاستخراج كارنيه او البطاقة الصحفية بلغة اليوم تسهل له الحركة وتيسر العمل وظهرت في الاسواق في تلك الايام (فنلة) صوفية فالدنيا كانت شتاء فنلة بلا اكمام وبلونين اخضر وابيض في شكل البلاط المتعاكس وفرح بها كثيراً لأنها سوف تزيد من هندامه وتحسن من صورته فاشتراها بخمسة وعشرين قرشاً وذهب الى جاره خواجة فرح المصوراتي الذي قام بمهمة التصوير واعجبه منظره فيها وأرسلها الى القاهرة في انتظار البطاقة الصحفية ومعها رسالة للنشر واذا بالايام تنقضي وتعقبها الاسابيع والشهور ولا تنشر له العمل ما يكتب ولا تصله البطاقة فأخذ يكتب في اصرار وفي الحاح الى صديقه صادق عبد الماجد يسأله الخبر ويرد صادق بضرورة مجيئه في عطلته الصيفية الى السودان وجاءت العطلة وجاء الصادق يحمل أغرب الانباء وهي ان صاحب السمو النبيل عباس حليم ما ان وقع بصره على البطاقة وفيها الصورة بتلك الفنلة التي اعجبت صاحبنا حتى أرغى وأزبد بالفرنسية والعربية والتركية هجوماً عنيفاً على صاحب الصورة على بدائيته وتخلفه (بترو تريبياً) كيف يتطاول هذا الخرسيس أدب سيس على ان يتشرف بأن يكون مراسلاً بجريدة العمل . . امان يا رب امان ثم مزقها وأشار بمعاقبة من تسبب في تلك الاهانة لجريدته وكان له ما اراد فهو حفيد ولي النعم المنتمي الى جناب العالي المعين بفرمان عالي من الاستانة .

ويصاب بعلة بعد ذلك اجبرته على السفر الى القاهرة طلباً لعلاج فيها وتلمساً في تحقيق رغبة كانت تلحج عليه وتؤرقه فهو واحد من اشد المعجبين بفن الموسيقار محمد عبد الوهاب شاهد جميع ما انتج من افلام وحفظ عن ظهر قلب حواراتها واغانيها وكان آخرها فيلم غزل البنات ودور عبد الوهاب فيه أغنية اسمها عاشق الروح تبين فيها بعد وذلك ما رواه له عبد الوهاب شخصياً ان

مطلعها لحسين السيد ولكنها جميعها من بعد ذلك من تأليفه شخصياً اجبره على ذلك استبطاؤه للشاعر حسين السيد في اكمالها فيما يتناسب وظروف الفيلم كان اعجابه بعاشق الروح اعجاباً شديداً وكانت من دوافعه الى السفر الى مصر وان يحصل على تلك الاغنية مسجلة على اسطوانتين حيث طال انتظاره لوصولها لكنهما لم تصلا فركب القطار ثم قطاراً آخر فالباخرة من حلفا الى الشلال ثم قطاراً ثالثاً الى القاهرة وكل الذي في جيبه ثلاثة وعشرون جنيها اول ما انفقه منه كان مبلغ ستين قرشاً ثمن الاسطوانتين والغريب حين اشتراهما كان وما زال لا يملك فونوغرافاً او بيكب .

ركوب الصعب

وركب صاحبنا الصعب لاول مرة بعد ان استقر به الحال في الابحاث الزراعية تلميذا يتلقى المعرفة لآفات النبات ومكافحتها وقبل ذلك دراسة طبائعها وعاداتها وذلك على ايدي علماء انجليز ومن بينهم سودانيين منهم بشير الشفيع وعبدالله حامد البدوي ومصطفى الصاوي . . وكان الصعب الذي يعنيه هو خروجه لاول مرة في عمل ساحته شاطىء النيل الشرقي من حنتوب وحتى كترانج القريبة من الخرطوم . . وكان الصعب ايضا . . ان تلك المأمورية تعتمد الجمل وسيلة للنقل وحيدة فالقرى على الشاطىء للنيل الازرق قريبة بعضها لبعض ويحترف معظم سكانها زراعة الجروف بالخضر واهمها البامية . . وكانت البامية هي الهدف من المامورية الرسمية فقد تعلم صاحبنا ان شجرة القطن وشجرة البامية وشجرة الهمبوك البرية انما تنتمي جميعها الى اسرة نباتية واحدة . . اذا نظرت اليها في كل اطوارها المتعلقة بنموها منذ ان كانت بذرة والى ان تصل الى مرحلة التزهير فانك لا تستطيع ان تفرق بينها الا اذا كنت متخصصا في علم النبات فالساق واحدة والافرع واحدة واوراقها متشابهة الى حد كبير وزهرتها واحدة لكنها تتميز بثمرتها اخر الامر فتستطيع ان تتبين وبسهولة لوزة القطن عن قرن البامية عن ثمرة الهمبوك . . وآية ذلك ان علماء الحشرات النباتية توصلوا بعد تجارب وملاحظات الى ضرورة الا تزرع البامية الا حين يزرع القطن حماية لمحصوله فهو عماد اقتصاد البلاد من ناحية وهو الخامة التي تعتمد عليها مغازل مصانع نسيج يوركشير ومانشستر في الجزر

البـريطانيـة فالآفـات الضارة لشجـرة ألقطن واهمهـا دودة السـاق (استمبورر) ودودة لوزة ألقطن الحمراء والدودة المصريـة والدودة الامريكانية وحشرة الجاسد والذبابة البيضاء والعسل او (الثرييس) وكلها آفات تحي بحياة شجرة الهمبوك . . وتبعا لذلك كانت زراعة البامية في البساتين والجروف والزارع المحيطة لمشروع الجزيرة ممنوعة بنص القانون في غياب زراعة القطن ولهذا جاءت السفرية تلك لا لتكشف تلك المزارع المخالفة للقانون لزراعة البامية فحسب وانما لاقتلاعها من جذورها ان وجـدت وتسجيل المخـالفات وتقـديمها لمحكمة رفاعة التي كان يـرأسها مفتش المـركز الشـديد البـاطش المستر(هوكسويرث) وكـان التيم المكلف للبحث والتفتيش وتنفيذ القانون يتكون منه ومن جاويش في البوليس اسمه بشير (وجمالي) مهمته رعاية الجمال الثلاثة طوال الرحلة يشاركهم المسئولية وقد سبق اختارهم بها جميع مشايخ القرى والعمد ونظار الخطوط . . ولان القرية السودانية لم تسمـع في ذلك الـوقت ولم تسمع حتى الآن بالفندقة . . والفنادق فان اطعام هذا الفريق من انسـان وحيوان ومبيتة في الليل كان مسئولية رسمية تقع على رجال الحكومة وممثليها في تلك القرى من مشائخ وعمد ونظار . . وكانت رحلة استغرقت قرابة الشهر . . بدأها وهو يخشاها خشيـة الانسان لكـل ما هـو مجهول . . فقد كانت تجربته الاولى فقد كان يحمل هم ماذا يأكل وماذا يشرب واين يغسل ملابسه اين ينام وكيف ينام وما هو مدى تحمله لمأمورية طويلة كتلك المأمورية وهو فوق جمل يركبه اول مرة في حياته . . ثم من هم الذين سيتعامل معهم من الزراع ومن سكان القرى . . كل ذلك كان يدور في عقله وفي قلبه هواجس ومخاوف . . لكنه وبعد أسبوع واحد من بداية الرحلة . . سعد بها كثيرا جدا فالسكان قبل رجال الدولة رحبوا به ترحيبا عظيما فأكتشف لأول

مرة انسان القرية المفطور على النجدة والشهامة والكرم في اصالة وصدق جعلته يختلف اختلافا بينا عن أنسان المدينة التي جاء منها على الرغم من ان انسان المدينة جاء في الاصل من تلك القرية .

شاهد اهل القرية وهم يعملون بالزراعة وفي الرعي وشاهد فضولهم وهم يلتفون بصغارهم وكبارهم حوله وهو يسأل عن منزل الشيخ ليصحبه الى (البقر) والجروف . . وكانوا يتبعون ذلك الركب الى أن يخرج من القرية لتسبقه انباءه الى القرى في الطريق . . يتكرر المشهد من قرية الى أخرى . . وحين يصادف وقت الغداء كانت القرية كلها . . كل الناس في بيت الشيخ يحملون ما استطاعوا توفيره من طعام احسن الطعام حتى اذا ما وفد غريب ورأى ذلك الحشد لظن انه حولية صوفية لدى شيخ من شيوخ الطرق وليست مأدبة اقامتها القرية في بيت شيخ من شيوخ الحكومة وكان شكل الطريق يتغير في الاسبوع مرتين هما يوم الاثنين ويوم الخميس فقد جعلت القرية السودانية من هذين اليومين سوقا يعقد فيهما في قرية وسط بين القرى يبيعون فيها ويشترون انتاجهم الخاص من سمن وحبال شعر ونسيج وغزل وآنية من القرع والفخار واطباق وسعف النخيل وبروش وشمال الى غير ذلك . . ويشترون بضاعة يحتاجونها . . درج بعض التجار ان يستقدمونها من المدينة وكانت اشهر الاسواق سوق (تنمبول) وما زال محتفظا بشهرته حتى اليوم . . وما زال بعض اصحاب المزاج الدقيق يلجأون اليها عندما تهفو نفوسهم الى اكلة كبدة الابل النيئة فقد اشتهرت بذبحها للجمال . . وكان الله وحده يعلم بما كان سوف يحل بصاحبنا من اصحاب الاحواض المزروعة بالبامية لولا وجود جاويش البوليس بشير العملاق المهاب الذي كان يضع بندقيته فوق فخذيه في حالة استعداد تام . . وصاحبنا يصدر تعليماته الى عمال الزراعة يأمرهم

بوجود الشيخ ان يقتلعوا تلك السيقان من جذورها . . وكان يتألم بمنظر الباميا الشايلة وهي تقتلع والى اصحابها وهم في حالة عصبية تكاد تصل الى مرحلة الجنون . . فانهم لا يفهمون لماذا تمنع زراعة الباميا ولا يفهمون لماذا تقتلع بعد ان اثمرت واتت اكلها . . غير ان العقاب كان عقابان . . اولها اقتلاع النبات . . وثانيها الوقوف امام هوكسويرث ليحكم بالغرامة في حالة الامتثال لاوامر الحكـومة او الغرامة مع السجن في حالة المقاومة وكان صاحبنا يخضع لعوامل نفسية عديدة اذ كان يعز عليه ان يهدر بالسلطات جهد ورزق اولئك السكان الذين احسنوا استقباله جماعيا واطعموه فإن بينهم وبينه ملح وملاح مطبوخ من الباميا .

رحلة بالجمال

كان ثلاثتهم وهم على ظهور الجمال متجهين الى آخر قرى المأمورية في حدود الخرطوم واذا بالسماء تكفهر فجأة وتكشر بانياب بروقها التي يصحبها رعد يهز الفضاء والخلاء ثم تتساقط حبات المطر سريعة كطلقات الرصاص ثم تزداد كثافة ماء وسرعة انهمار فتبتل ثيابهم وركائبهم والارض من تحتهم وكانوا في تلك اللحظات وكأنهم في حاجة الى سفينة نوح وليس سفن الصحراء التي يركبونها . . ذلك ان الجو العام يوحي انهم يعيشون حالة طوفان ويصبح (الجمال) طالبا التوقف على المسير وليكن ما يكون والجمال لا تستطيع السير فوق الطين وخاصة اذا كان من النوع الذي يتحول بفعل الماء وبصلابته الى (زـ لقيقة) فالجمال فلقت اخفافها للسير فوق صحاري شبه الجزيرة العربية واي صحاري آخرى بما في ذلك صحراء نيفادا في الدنيا الجديدة لا لتسير بها فوق ارض كالتي نحن نمشي عليها في ذلك الوقت ولان انهمار المطر قد انحسر واصبح رذاذا الا انه كان رذاذا لاسعا بفعل الرياح العنيفة المصحوبة ببرد قارس . . وبعد مشقة وعسر استطاعوا ان يصلوا الى القرية الهدف وساعات النهار اوشكت على الانقضاء وكنكشت البرد ما زالت تلازمهم وتشتد وتعنف حتى اذا ما احتواهم الديوان الكبير الذي تقارب مساحته ما يتساوى ومساحات ملاعب كرة القدم . . حوش طويل عريض بداخله بيوت معظمها متلاصق واقلها متفرق يحوط بها سور كأسوار المدن القديمة في التاريخ في مدخله بحيرة صناعية بدائية قطرها حوالي ثلاثون متر تسمى بالحفير اقاموها لتتجمع فيها مياه

الامثار في الخريف فتمتلىء حتى اذا ما جاء الصيف الغايظ وشحت المياه . . كانت احتياطيهم لمقابلة تلك الشهور القاسية تستخدم لمصلحة الانسان والحيوان . .

وفي الديوان الكبير المرتفع عن الارض بمتر وبعض المتر الشاسع الواسع من الداخل والذي ينقصه ان يصبح مسجدا يتسع الآلاف المصلين ان تقام بجانبه مئذنة عالية وكانت الاسرة متناثرة على ارضه . . تحتها ابسطة وحصير من كل نوع وذوق وكراسي الجلوس يعج بها المكان جنبا الى جنب مع المناضد كبيرها وصغيرها والكراس الصغيرة ومجموعة من موظفي الدولة الذين جمع بينهم المكان وفرقت بينهم المهام ففيهم نائب مامور المركز وضابط الصحة ومفتش التموين وضابط المساحة وضابط الحشرات والاتيام متشابهة . . قائد التيم الجاويش (البوليس) و (الجمال) ما عدا نائب المأمور والذي كانت تحف به شلة من انفار البوليس يقوده صول وعدد رجال البوليس الذين تجمعوا في ذلك اليوم يشكلون قوة لظبطية كاملة او تمنة على الاقل ولانهم منضبطون فأن قيادتهم عقد لواؤها على اكبرهم رتبة وتشتد بصاحبنا كنكشة البرد وترتفع درجة حرارته فينزوي الى ركن قصي من الديوان يجتر البرد والحمي والالم لكنه في مكانه ذاك كان يرقب كل كبيرة وصغيرة مما يجري داخل الديوان من حوله ولشد ما كانت دهشته حين طال به الترقب أن نظره لم يقع على رجل واحد جاء للترحيب بمقدمة او برجل واحد يقوم على خدمة من سبقوه من الاتيام بل كانوا جميعا من النساء اللائي يدل اختلاطهن الاجتماعي بمن سبقوه في ذلك المكان انها معرفة قديمة وصلات قديمة لا يمكن ان تكون قد نشأت بين يوم وليلة وتبين له فيما بعد أن تلك الاتيام ولعشرات المرات أن جاءت

الى ذلك المكان واختلطت بمن اختلطوا ونشأت العلاقات وعلى الخصوص رجال البوليس وفجأة تسكن الحركة ويصمد الجميع بمنظر سيدة شابة بلون الذهب تمشي على الأرض بخطوات هي الالحان بعينها وتحس في خطوها شيء من الكلاسيكية وتسبقها لدى الحاضرين ضروب شتى من اللهفة والشوق والاحترام والكل يتمنى لو مدت اليه يدها تصافحه وان ذلك البرد الذي يحسه هو اعتقد معه ان الدنيا كلها وقد تعرضت له في حاجة الى لمسة من تلك اليد لتشبعها حرارة ودفئاً ولكنها تخيب ظن الجميع وتطلق تحية واحدة من فمها لكافة الحاضرين وتستدير في رشاقة صوب ذلك الركن القصي الذي يقبع فيه صاحبنا وتسأل في وقار ممزوج بالدلال ماذا به . . ؟ وترد الاصوات مجتمعة في كورالية تحتاج الى تدريب (ميرود) فتتجه اليه مع ملامسة اقدامها لارض الديوان الكبير في طريقها الى حيث يرقد كانت دقات قلبها تدق هي الأخرى في ايقاع متسق مع تلك الخطوات وتقترب الى ان تقف قبالته تماما لا يفصل بينها مكان ولا زمان وهكذا كان يحس . ومدت يدها لتضعها في رفق على جبهته تتلمس درجة حرارته واذا بها يرتفع عكسا فقد نسى صاحبنا المطر والبرد والحمى ولم يبق عنده حسا وتفكيرا سواء تلك اللمسة التي لم يستشعر مثلها طوال حياته فاستدارت حازمة وخاطبت بعض النساء قائلة انه يحتاج الى عناية لا يوفرها له هذا المكان ارجو أن تساعدنني في نقله الى حيث يقيم ووجد نفسه خفيفا بل معافى من كل أثر لحمى او مرض ولم يقبل ان يساعده احد على النهوض او المشي كل ما طلبه أن يدلوه على المكان وهناك كانت عنايتها به ما تمنى ان تطول بل وان تدوم الى آخر العمر . . كانت تأتيه بالبخور وبالقرض وبالزيت والملح وتدلك جسده الواهن اكثر من مرة في اليوم ولكن الحال يزداد سوء فيصيبها خوف عليه وجزع فتستغيث بمن لا يستطيع

ان يقدم يدا ذلك ان الخريف اغلق الطريق جميعا فقد شاءت ارادة الحكومة البريطانيـة ان تقرر هي لا السمـاء ان الخريف يبـدأ في الخامس عشرة من يوليو وينتهي في الخامس عشرة من اكتوبر وفي تلك الفترة كادت اللواري تنزل ضيفة على الورش في المدن وتتعطل عن العمل تماما ولا يبدأ تحركها الا في الخامس عشر من اكتوبر فيصيب المجتمع بسبب الخريف وهو نعمة من السماء حالـة من الركود الاقتصادي فليس من بضاعة تخرج من المدينة الى الريف ولا من بضاعة تتحرك من الريف الى أي مدينة ولا سبيل الى التنقل الا على القدمين او فوق ظهر حمار اما الجمال فأنها سوف تنكسر اذا سأرت على الطين وكانت اقرب المدن الى مكانه ذاك هي الخرطوم بحري حيث يعمل فيها خاله حكيمباشيا لمستشفاهـا ولكن كيف السبيل الى بحري وذلك الخال الطبيب وبضغط من الحمى التي تفاقمت وحالته الصحية التي اخذت في التحول من السيء الى اسوأ فأنه كان يفضل ان تكون نهايته الموت لحالته تلك ضناً منه بدقيقة واحدة يمضيها بعيدا عن تلك التي احبها بكل نبضة قلبه دون ان يقول لها (احبك) على ضرورة ذهابه الى المستشفى الذي اقنعه الى ركوب الجمال والتنكر للجمال كلها والمهم ان علاجه كان يرضيها ولعلها المرة الأولى التي يفعل فيها شيئا ليرضيها . . فأن ظروفهما معا ومنذ ان التقيا لم تسمح لها او تمكنه من فعل شيء الهدف منه ان تكون راضية .

وتحركت الجمال في فجر يوم . . السماء صافية الزرقـة فيه والخلاء حوله مخضرا بالنباتات الخلوية تعلو هاماتها الوان من الزهور تجاورها قطرات الندى التي تلمع فوق الاوراق عاكسة لضوء الصباح الباكر .

والغريب انه ما ان غابت تلك القرية عن ناظريه حتى نسيها

ونسى من فيها ثم اختلطت عنده الاشياء فغاب عن حسه جمال الطريق واصبحت الاشياء كلها لا تعني عنده شيئا حتى اذا ما وصل الى الخرطوم بحري وشرع في معالجته من الملاريا الاولى التي اصابته بدأ مهموما مكدودا فيتم العلاج وهو في ذلك الهم الذي يتحول الى شيء من الاكتئاب يغمره شعور بأنه فقد شيئا عزيزا على نفسه ولا يدري ما هو ذلك الشيء الذي افتقده .

عودة الى العمل

وكان خاله الطبيب يحثه على العودة الى حيث ينتظره عمله فهو في صحة جيدة ولا يشكو شيئا وما علم خاله ان شعوره بالفقد كان يؤرق نهاره ويسهر ليله بالارق ولا اعتقد بأن ذاكرته بذلت من الجهد الى درجة الاعياء في محاولات متصلة ليهتدي بها الى ذلك الشيء المفقود وفجأة وبلا مقدمات يستعيد شريط ذكرياته القريبة فيجد نفسه في تلك القرية التي بداخلها حوش في حجم ملاعب كرة القدم وفي داخله بيوت أغلبها متلاصقة وأقلها متفرق وفي مدخله بحيرة . أحس آنئذ انه تعرض بمجيئه الى بحري الى حالة من الانفصام أورثته ذلك الاكتئاب فقد جاءها بجسده العليل تاركا قلبه الاخضر في احد تلك البيوت الصغيرة داخل تلك المدينة الصغيرة . أذن ان ذلك الذي افتقده قلبه وكان اسمه بين القلوب (كلتوم) واذا بصحوة تدفعه دفعا الى التوجه الى حيث ينتظره قلبه وكانت اطول رحلة في التاريخ مغامرة فوق سيارة والطرق مغلقة بنص ألقانون وهي مخالفة قانونية لا شك في ذلك ولكن لا يهم وهي أيضا مغامرة ليست محسوبة فقد تهطل الامطار في أي وقت ويتعذر على تلك السيارة الخروج من الوحل لايام قد لا تطول لكنها تكون كافية لكي يكتشف أمره فتتعرض الى مواد عقابية تطبقها المحكمة على المالك وعلى السائق وعلى مستأجر السيارة على السواء ولكن لا يهم فلم نسمع بأنسان في هذه الدنيا صم أذنيه عن نداء قلبه خشية قانون او عقاب (فأدورد الثامن) ملك بريطانيا تنازل عن اكبر عروش الدنيا من أجل امرأة أمريكية اسمها (مسز سيمسون) ولقد طحن تاريخ

النسيان ملوكا وأباطرة مروا على عروش بريطانيا وغير بريطانيا ولكن قلبا واحدا ظل وسوف يستمر متوهجا في تاريخ الانسانية الى يوم الدين . .

وعندما بدأت معالم القرية تلوح من بعيد أخذ قلبه يدق بعنف الشوق حتى انه يسمع دقاته بأذنيه وما أسعده في ذلك اليوم حين وجدها خارج القرية بمسافة بعيدة وفرت عليه انتظارا قاتلا للوصول فهبط من السيارة واخذ يعدو نحوها وكانت تعدو نحوه والتقيا في عناق وجد نفسه خلاله وهي بين زراعيه يمسح دموعها بشفتيه ولم ينطق بكلمة واحدة وسارا متجهين الى القرية ملتصقين تماما . . كل الذي سمعه منها هو انها كانت تحس احساسا صادقا نتيجته مؤكدة ان اليوم ستراه وصدق حسها فها هو الى جانبها ووصلا البيت وكان بينهما ما يجري عادة . . ما يجري بين عاشقين واستمرت حياته هنيئة سعيدة لا يكدرها شيء الا ذات صباح حين جاءه من طلب اليه ان يقابل أمينة مخازن المدينة الصغيرة تطلب اليه ان يجيئها لامر هام للغاية وهناك نقلت اليه في شيء من الصدق خوفها مما يبطنه مقبل الايام بالنسبة لكلتوم فهي المحظية الاسيرة عند ملك المدينة الذي كان يمضي أسبوع زواج جديد في قرية بعيدة قالت : لا يخدعنك ما انت فيه الآن من مجاملات رقيقة من فتيات هذه المدينة ومحظياتها فاعلم ان مجرد مجيء ذلك الملك سيهرعن اليه مبلغات العلاقة التي ربطت بينك وبين كلتوم في غيابه وانه لرجل غيور باطش . . انت ستذهب بعيدا الى اهلك وزويك وسوف تنسى كل شيء مما تمر به ويمر بها الآن اما هي فلا يعلم غير الله ما سوف يحل بها من بطش وتشريد فاستشاط غضبا وقال في عصبية وانفعال أنني سوف أغادر فعلا لاسلم عهدتي لمن أرسلوني . . لكنني سوف اعود الى هنا لاصحبها معي والى الابد فلن يراها صاحب الجلالة مرة اخرى . .

وكان عيد الاضحى على الابواب وكان التيم كله عزم على الرحيل وجهزت الركائب من الجمال وامتطاها الشاويش و (الجمال) وأقبل نحوها كما اقبلت هي نحوه تودعه . .

وهما في وداعهما ذاك واذا هي تهمس في اذنه ان يبقى ليسافر غدا وكان لها ما تريد وتكررت هذه الحالة لثلاث مرات وفي اليوم الرابع امسك الجاويش بندقيته مهددا بأنك ان لم تغادر الآن هذا المكان فأني (على الطلاق) سأفرغ فيك هذه الرصاصات (وتدخل الاجاويد وكانت هزيمة كبرى امام من يحب لكنه لم تفارقه لحظة وهو بعيد عنها حتى عاد مرة اخرى الى تلك القرية وجرى في لهفة الى حيث تقيم فوجد المنزل مغلقا من الخارج والهدوء الذي يسود ما بداخله يدل على ان انفاسه خمدت فهو أقرب الى ان يكون قبرا منه الى منزل كان الفردوس بعينه قبل اسابيع وجرى كالمجنون الى امينة مخازن المدينة الصغيرة فما ان رأته حتى بكت وسالت دموعها على خديها فسألها اين هي . . ؟ قالت : . . ان الذي توجسته قد حدث (ولقد حذرتك منه وحذرتها هي ايضا ولكنكما لم تستبينا النصح فكان ما كان وقالت انها لا تعلم اين هي الان . . ؟ والى اين ذهبت والى اي أرض تنتمي فان صلتها بساكنات المدينة تبدأ بدخولهن اليها وتنتهي بخروجهن منها ذلك وحده هو الذي يعلمه ولا يعلم سواه (امضى صاحبنا ما يربو عن العاملين في البحث عنها في ودمدني وفي المدن الثلاث وكان أن يسأل عنها بيتا بيتا واصيب بعدد من الامراض لم ينتبه اليها او يشعر بها فقد كان همه هي . . وظل يعذبه همه طيلة تلك المدة وما بعدها فقد كانت آلامه في بدايتها اشبه بطبق (ريكه) امتلاء بالكسرة وهي طرقات عددها بالمئات كل واحدة منها تعلوها طرقة حتى ترتفع فتطاول حفاف الطبق وتطول عليه وبمرور الايام اخذ طبق الآلام تخف حدته بان تنقص

منه في كل يوم طرقة واحدة الى ان فرغ تماما من اي اثر للكسرة وأدرك لحظتها انه شفي مما كان فيه من مرض اسمه الحب في اعتقاده فقد كانت تجربته الاولى التي خفق قلبه فيها وكان ايامها قد اضطلع على شيء من ثقافات الاغريق من الادب العالمي الحديث فمن الحديث كانت ترن في أذنيه عبارة قالها الشاعر الفارسي (لورد بايرون) (ليت نساء الدنيا كلهن فما واحداً اذن لقتلته وارتحت) وعندما مرت بصاحبنا السنوات زاخرة مليئة بالتجارب مع المعايشات تبين له الخطأ الكبير الذي وقع فيه . شاعر الانجليز (بايرون) فمشكلته التي املت اليه ذلك القول هي انه كان يبحث عن الحب ولم يجده الى ان مات والحب هو ان يجد الانسان فما واحداً لنساء الارض في واحدة من بينهن وعندما يقبل ذلك الثغر يبدأ عذابه .

وفي اساطير اليونان قرأ عن جوبيتر رب الارباب انه حين غضب على الناس وكان الانسان آنئذ كالذئاب يجمع بين الذكورة والانوثة في ان واحد فجمع الآلهة فوق قمة الاولمب وافضى اليهم بقرار مفاده (ان يفصل بين عنصري الذكورة والانوثة في الانسان ويشتت الشطرين على مشارق الارض ومغاربها ولا يجمع نصفاً الى نصفه الآخر الا اذا رضي هو) ومن هنا نشأت قصة الحب او البحث عن النصف الآخر . .

وذات امسية من ليال الصيف كان جماعة من الاصدقاء تجتر ذكريات الماضي كانوا . . على وحسبو والتجاني يجلسون في حديقة سطح فندق المسرح يتسامرون بذكرياتهم وقص عليهم صاحبنا قصة (كلتوم) فتابعوها بشغف وجدية الا على شمو الذي استغرق في ضحك متواصل وطويل قال بعده (او تريد ان تراها الآن . .) وكان قد مضى على ذلك الفراق قرن من الزمان قال : اذا كنت تريد

ان تراها انا مستعد ان اخذك اليها . . واستيقن من صدق على شمو وجديته وما سرد من معلومات عن كلتوم واتفقا على موعد حدداه وحين جاء اليوم المنتظر جاء على شمو حسب الاتفاق وجد صاحبنا وقد تغير رأيه وسأله هل اجلت . . ؟ فاجاب كلا (واضاف انني زاهد في ذلك لسبب بسيط ان كلتوم التي حدثتكم عنها انسانة تختلف عن تلك التي تودني ان اذهب اليها وقد مضى ربع قرن من الزمان ويقوم رفضي على اسباب فنية بحتة هي . . انني اريد ان احتفظ لها في وجداني بصورتها القديمة) .

اذا سألت عن (الكليتون) فهو قطار يتحرك يومياً من ودمدني محطة البداية في الساعة الرابعة مساء ينتهي في التاسعة في آخر محطاته ود الترابي يجر خلفه اربع عربات للركاب احداها اولى واولى نوم وعربة درجة ثانية واخرى ثالثة والاخيرة رابعة يضاف اليها عربة الفرملة كان يقطع المسافة في خمس ساعات بطيئة ثقيلة الدم لأنه لا يكتفي بالتوقف في محطات السكة الحديد الواقعة بين ودمدني وود الترابي وانما اعتاد الوقوف ايضاً في محطات اطلق على واحدتها اسم (السندة) وربما كان يقف فيها راكباً واحداً . . ولهذا كان يبطىء في سيره ويأخذ ساعاته الخمس في هذه المسافة التي تقطعها السيارة اليوم في ساعة وبعض ساعة وبمرور الايام . . ا ضيفت الى (الكليتون) عربة للحيوانات . . فراكب (السندة) كثيراً ما يصحب معه حماره او معزة او خروف بغرض تسويقها في اماكن اخرى من الطريق . . ويبيت (الكليتون) في محطة ود الترابي التي يتحرك منها عائد في الساعة السادسة صباحاً من اليوم التالي فيصل ودمدني في الساعة الحادية عشر من نفس اليوم . . وهي مواعيد لا تنطبق عليها قواعد الانضباط التي عرفت بها قطارات

السكك الحديدية في تلك الايام فاحياناً تزيد الساعات عن خمس بما لا يتجاوز ربع الساعة بأية حال من الاحوال وذلك بعكس سير القطارات التي تضبط عليها الساعة في حالتي القيام والوصول وكان للابحاث الزراعية محطة زراعية في (كاب الجداد) وهي قرية قريبة جداً من محطة السكة الحديد بود الترابي اذ تبعد عنها بما لا يزيد عن ثمانية كيلومترات . . يعمل فيها بعض الخفراء الزراعيين ويتفقدها بين الحين والحين جماعة من الفنيين من تربية النباتات . . وكان اشهرهم واكثرهم التصاقاً بتلك المحطة امين حسن . . الذي كان يقيم فيها احياناً لمدة تتجاوز الاسبوع بكامله ليعود الى الرئاسة في ودمدني يمضي فيها يوماً او يومين ثم يكر راجعاً الى كاب الجداد ليبقى فيها ذلك الاسبوع او اكثر بقليل يحصل ذلك طوال الموسم الزراعي . . وكانت محطة كاب الجداد الزراعية ايضاً مسرحاً لنشاط علمي يقوم به قسم ابحاث وقاية النباتات الذي كان يعرف في ذلك الوقت باسم قسم الحشرات . . وكان اكثر المهتمين بالمحطة الزراعية باعتبارها جزءاً من عمله بشير بابكر الشفيع . . غير ان الفرق بين الشخصيتين امين وبشير هو ان الثاني لا يبقى في كاب الجداد ا لا يوماً واحداً او ليلتين . . الامر الذي جعل من الأول ان يقيم منزلاً في المحطة الزراعية يقيم فيه بصفة مستمرة بينما كان الثاني يتخذ من قمرته في الكليتون سكناً حين يصل يبيت فيه ومن معه . . ثم يغادرونه قبل السادسة صباحاً الى المزرعة ويعودون اليه بعد وصولهم في التاسعة لقضاء ليلتهم فيه ثم التوجه به الى ودمدني حين يغادر ود الترابي في ذلك الصباح الباكر . . وامتدت زيارات صاحبنا الى هذه المنطقة حين اتسعت اعمال قسم الحشرات فيها فكان يصحب بشير الشفيع ومعه زميله عمر عبد الرزاق . . وحين تحول الى عمل حشري آخر متعقباً الجراد بانواعه في شرق افريقيا او في شبه الجزيرة

العربية حل محله عبد القادر فرج ابو زيد ا لذي كانت اقامته في كاب الجداد كتمتد ا لى ايام هو ومن معه من العـاملين وكانـوا عصمه . . سيد العوض محمد زين وعمر عبد الرزاق ومحمد نصر وابنه كنه وحسين عدلان . . وكان وحسن حظهم جميعاً ان اقلت الشركة الزراعية سراي الباشمفتش الزراعي البريطاني المستر (جين) وهو بريطاني شهير لقسوته مع المزارعين ولاختلاطه بسكان المنطقة من الوافدين شاديين وفلاته وغيرهم . . وكان الاخلاء لاسباب لا نعرفها حتى الآن . . فكانوا يتخذون من تلك السراي استراحة لاقامته في الماموريات وهي كبيرة وساعة تحيط بغرفها البرندات المؤمنة بالنملية ضد الناموس والحشرات والهوام الاخرى ويذكر بهذه المناسبة انه سعد جد بالاقامة لتلك السراي ذات الحديقة الواسعة ا لتي قد تصل مساحتها الى اكثر من فدان معظمه حديقة جميلة . . وسعد اكثر لانها صورة حقيقية لمساكن الانجليز في الحي البريطاني بودمدني . . والتي كان يطوق دوماً الى معرفة اسرارها ليس من حيث الطريق التي يعيش بها الانجليز بداخلها . . انما لانها تكاد ان تكون ذات طابع واحد تختلف في المساحات وتختلف في عدد الحجرات والمنافع ولكنها تتفق في التصميمات الموحدة الشكل ومادة البناء . . لكنها مقسمة الى درجات منازل درجة اولى يسكنها نائب مدير المديرية ومدير الري ومن هم في مثل مكانتهم نفوذاً وسلطاناً ومكانة في الحكم ثم الدرجة الثانية التي خصصت لمن هم دونهم بقليل ولا مكان للدرجة الثالثة اللهم الا بيوت الحكومة التي يسكنها السودانيون واقيمت في مساحة واسعة تقع بينها مستشفى ودمدني في جنـوبها ومبني الصحـة من الناحية الشمالية . . ودرج الانجليز آنذاك في ان تكون مساكن من يعمـل معهم في السكة الحـديـد داخـل المحـطة ومن يعمـل في (البطري) في قريب من مكان عمله وقمندان البوليس في الاورطة

ومهندسو الري قريباً من مصلحة الري وهكذا . . اذا كانت سعادة صاحبنا حين وجد نفسه داخل هذا القصر لا تعادلها سعادة واخذ يزرعه شبراً شبراً متفقداً ابهائه وبرندائه وغرف نومه وحماماته وارضيته التي كانت من البلاط المربع الاحمر الصغير اللامع . . وكانت دهشته عظيمة حين يدعك طلاء الجدران باصابعه فلا ينتقل ذلك اللون الى اصبعه كما اعتادت الالوان ان ترتد في اصابع داعكها في مساكن اهل المدينة المختلفة . . . فكانت تطيب له الحياة داخل القصر فهو يقيم فيه ما يزيد في جملته عن الشهر في كل عام . . كان يصعد وبعض زملائه السلم الخشبي الاخضر اللون الى السطح الكبير حيث الغرفة الصيفية المصنوعة من اسياخ الحديد والنملية وهي قاسم مشترك في جميع البيوت التي يسكنها الانجليز فهي غرفة النوم على السطوح طوال اشهر الصيف . . ولكثرة ما ترددوا على ذلك المكان كاب الجداد نشأت العلاقات بينهم وبعض اهل الحظ من المنطقة . . وكانوا يتجنبون التعرف والاختلاط بمن عرفت الاستقامة مذهباً في سلوكه العام والخاص وذلك عن عمد ولحاجة في أنفسهم . . فقد كانت المنطقة بعض البيوت التي تدار على نسق ما كانت تدار به حانات الجاهلية نسطاس . . وكان اشهر البيوت لامرأة من الوافدين تدعى (مزيقيله) واسباب الشهرة ان حانتها متقدمة حضارياً بالقياس الى غيرها من حيث الاثاث والمفارش والاواني وكانت هي نفسها ذات جمال اخاذ تحسن استقبال زبائنها للدرجة لا تستطيع ان تفرق فيها بمن هو الاقرب من بينهم الى قلبها واهتمامها . . فكان من الطبيعي بحكم السن آنذاك والفراغ العريض والبحث عن الملذات وعن المتعة ان يتخذوا من حانة مزيقيله منتدى يمضون فيه لياليهم كلهم الكانوا يستعجلون مغيب الشمس لتبدأ استعداداتهم في المضي الى حيث تنتظرهم المتعة التي يشتهون . . وكان مجلسهم نهاراً

ذاك مشغولاً بفتاة دون العشرين تنتمي الى واحدة من القبائل الوافدة اسمها (حريرة) تعمل في الابحاث الزراعية بودمدني ولان حريرة سيئة الحظ لم يلتق بها صناع السينما في هوليود ليجعلوا منها واحدة من نجوم الاغراء الذين يعرفهم لعشاق السينما في انحاء العالم امثال (جين مناسفيلد) و (ومارلين مونرو) و(راكيل ولش) ولم يكن غريباً ان تكون حريرة موضوع الحديث في منتداهم اليومي فما من جماعة التقت من العاملين في الابحاث الزراعية بودمدني وفي اي ساعة بالليل او بالنهار الا وكانت حريرة هي مسار الاهتمام وهي مسار الحديث وهي احلام اليقظة والمنام . . كانت رشيقة جميلة يزين خديها غمازتان يشعان بضوء ينفذ الى القلب مباشرة حين تبتسم فهي عبارة عن فتاة خلقت من الابتسامة . . فقد كانت نموذجاً حياً (لموناليـزا) التي خلدهـا (ليـونـارد دافنش) في لـوحتـه البـاقـة (الجيوكنده) التي أينما نظرت اليها رأسها كفاها . . عيـونها . . . ذراعاها . . جيدها لا يقع بصرك الا على الابتسامة . . فالفرق بين الاثنتين هو في ان الموناليزا تحتاج الى المدققين من الخاصة بينما حريرة لا تحتاج لشيء من ذلك فهي كتاب مفتوح يقرأه حتى الامويون فهي اعتادت ان ترتدي فستاناً واحداً عادياً جداً من حيث القماش ومن حيث التفصيل وفوقه طرحة حمراء كان استعمالها وقفاً على بنات الفلاتة اللائي يبعن (المرور والـوينة والقـدقدو) ولـما كان ارتباط الابحاث الزراعية بالعاملين في الحقول ارتباطاً موسمياً كان لابد لها من الاستغناء عن الجميع ما عدا استثناء اسم حريرة فهي في رئاسة الابحاث كالشمس ينبغي ان تشـرق كل صبـاح . . وكانت هي تعرف تعلق القلوب بها حتى اصبح امراً عادياً بالنسبة لها وكانما خلقت لتتعلق بها القلوب فالشبان والشيوخ يتسـاوون في تلهفهم عليها بل احسبوني لا ابتعد كثيراً عن الصدق اذا زعمت بان كافة

العاملين في الابحاث الزراعية لا يعتبرون اليوم الذي لا يرون فيه حريره يوماً من عملهم حتى اولئك الذين تجمع بينهم بروش الصلاة بعد فراغهم منها لا حديث لهم الا حريرة وفتنة حريرة وخشيتهم على الفضيلة والاخلاق الحميدة ان تهتز وتنزلق الى ما لا تحمد عقباها وهم في حقيقة الامر يشبعون تطلعهم الى ذلك الجمال الذي تهفو اليه نفوسهم مثل الاخرين الا العاصم الديني والتربوي والسلوك القويم باعتباره النهج الذي جعل منهم القدوة بالنسبة للآخرين . . والحديث عن حريرة حديث طويل ليس من السهل الخوض في تفصيلاته على الرغم من انها ليس فيها ما يعيب او يخدش حياء فالامر يستحق ان يكون رواية طويلة لروائي مقتدر .

تلك لوحات خاطفة من حيوات مختلفة تمثل جانباً من التاريخ الاجتماعي لعاصمة الاقليم الاوسط ودمدني العظيمة . . كان مدخلها سحارة الكاشف والتنقيب داخلها مما كانت حصيلته ما سبق من فصول ولقد نزح الكاشف الى العاصمة ونزحت معه سحارته التي يتصل التنقيب فيها عن عاصمة البلاد وذلك هو الجزء الثاني من سحارة الكاشف . . اعاننا الله جميعاً على انجازه والتوفيق فيه والتوفيق من عند الله مسئول .

الفهـــرســـت

الموضوع	الصفحة